﴿وبشِّرِ الذِين آمنُوا أنَّ لهم قدمَ صدقٍ عند ربِّهم﴾ [يونس: ٢] .

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على النبي الكريم

الحمدُ لله الموحي إلى عبده ما أوحى ، من الآياتِ والأحاديثِ الشارحة لها شرحاً ، المقيِّض لها جَهَابِذَة نقاداً ، لاتَعْرَى معهم ولاتَضْحَى ، مصونةً بِهِمْ عَنْ زَيْغِ مَنْ حَاوَلَ فيها قدحاً ، والصلاة والسَلامُ على مَن اصطفاه الباري قديماً لنبوته ، فكان نبياً وإن آدم لَمُجَدَّلٌ في طينته ، متقلباً في الساجدين إلى أن أظهره الله تعالى رحمة لخليقته ، متدثِّراً بأعباء رسالته ، قامعاً كلَّ مارِدٍ خارجٍ عن طريقته ، محمدٍ الذي ما كان الكون إلا لكون حقيقته، وعلى آله الذين سبق لهم من الله تعالى التطهير ، فكانوا في جميع العصور قادة لكل خير وخير ، وعلى أصحابه المشمِّرين لإظهار الحق غاية التشمير ، حتى أبادوا ودمروا من خالفه أفظع إبادةٍ وشرَّ تدمير ، والتابعينَ لهم فيما سلكوا من مناهجِ التبصير.

أما بعد: فقد منَّ الله تعالى على هذا العاجز الحقير الفقير ، فضلاً منه ورحمة وإحساناً على أهل التقصير بخدمة جامع الصحيح للإمام الحجة أبي عبد الله محمد بنِ إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري الشهير، فجمعت في خدمته ما يَعْجزُ عن تحريره كل عالمٍ نحرير خبير ، فجعلت عليه كالشرح قاصداً به تعريف ما فيه من الرجال سنداً كان ، أو مذكوراً في خلال المتن على أي وجه جاء ذكره في الخلال ، محيلاً كل ما تكرر من الرجال على الحديث المعرف فيه بالنص لا بالاحتمال ، كي لا يتريَّث الناظرُ في طلبه لالتماس المحال ، آتياً بما لهم من الأنساب والبلدان على أكمل حال ، موضحاً ما فيه من المبهمات ، عازياً وَصْلَ ما

فيه من التعليقات والموقوفات ، والمرسلات والمقطوعات إلى من أوصل ذلك من أجلاء علماء الحديث الثقات ، ذاكراً عند كل محلٍّ ما فيه من أصول الحديث ، فاحتوى على كل ما ألَّفه فيها العلماء من قديم وحديث ، مبيناً عند كل حديث من أخرجه من الستة أهل الاعتماد ، موشحاً ذلك بذكر ما فيه من لطائف الإسناد ، فجاء بحمد الله تعالى جامعاً لكل ما يحتاجه القارىء لصحيح البخاري مما انفرد كُلٌّ نوع منه بالتآليف السُّنيَّة ، فلم يبق من مطالبه سوى إيضاح المعاني اللغوية ، وتناولها سهل على كل متعاط للغة العربية ، وسميته .

«كوثر المعاني الدراري ، في خبايا صحيح البخاري»

وأسأل الله تعالى الكريم الحنان المنان وأتوسل وأتشفع وأتوجه إليه بسيد ولد عدنان وقحطان ، محمد الحاوي من الفضائل ما لم يحوه مَلَك ولا إنس ولا جان . أنْ يعينَني ويوفقَني لإتمام هذا الكتاب ، ويجعله نافعاً لمن حاول النفعَ به من العلماء والطلاب ، مقبولاً عند الله تعالى يومَ الجزاء والحساب ، ليس بينه وبينه ـ يوم تُجزى كلُّ نفس بما لها ـ حجاب[1] .

هذا ولما كان الصحابةُ والتابعون ، عليهم رضوان الله تعالى أجمعين ، سبباً في اتصال الشريعة والسند لسائر علماء المسلمين ، أردتُ أن أُثبت مقدمةً في حقيقتهم ، وما لهم من الطبقات ، فتمتاز عند العارف بذلك المرفوعاتُ من المرسلات ، ويجني من معرفة حقيقتهم يانعَ الثمرات .

(١) بعد أن أتم الله تعالى الكتاب على ما بينتُه في نحو ست مجلداتٍ ، بدا لي أن أشرح المتن شرحاً ، جامعاً لجميع المعاني المتفرقة مما لم يتيسر لأحد قبلي جمعه ، ليكون الكتاب مغنياً لأهل العلم العلماء المدرسين وطلبته عن جميع شراح البخاري ، وجميع كتب الرجال والصحابة ، وكتب أصول الحديث فيكون إن شاء الله تعالى كما في المثل :
«كل الصيد في جوف الفرا ، وفي أعين ناظريه أحسن من نار القرى ، في عين ابن السرى» .

فأقول وعلى الله اعتمادي ، وبه توفيقي ورشدي وسدادي :

مقدمة في عقيدة الصحابة والتابعين عليهم رضوان الله تعالى

وأقتصر في هذا المبحث على ما ذكره فيه «فتح الباري» ، سوى زيادات يسيرة من «المواهب» وشرحه للزُّرْقاني والنووي وغير ذلك ، وأبدأ في تعريف الصحابي بما عرفه به البخاري .

قال البخاري في «صحيحه» : الصحابي من صَحِب النبي ﷺ ، أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه .

قال في «الفتح» : يعني أن اسم صُحبة النبي ﷺ مستحق لمن صحبه أقل ما يُطلَق عليه اسم الصحبة لغةً ، وإن كان العُرف يُخصُّ ذلك ببعض الملازمة ، فالصحابي مشتق من الصحبة ، جارٍ على من صحب غيرَه قليلاً كان أو كثيراً ؛ يقال : صحبه شهراً ويوماً وساعة ، وهذا يوجب في حكم اللغة إجراء هذا على من صحب النبي ﷺ ولو ساعة . وما ذكره البخاري هو الراجح ، وسبقه إليه شيخُه علي بن المديني ، وهو قول أحمد بن حَنْبل وجمهور المحدثين ، وقال النووي : كافة المحدثين .

وذهب أكثر أصحاب الفقه والأصول إلى أنه مَنْ طالت صحبته ، له ﷺ ، قائلين : إن عُرف الأمة هو أنهم لا يستعملون لفظ الصحبة إلا فيمن كثرت صحبته ، واتصل لقاؤه ، ولا يجري ذلك على مَنْ لَقِيَ المرءَ ساعة ، ومشى معه خَطَوات ، وسمع منه حديثاً ، فوجب أن لا يجري في الاستعمال إلا على من هذا حاله .

قال النووي : ويُستدل على ترجيح مذهب المحدِّثين بأنهم نقلوا عن أهل اللغة أن الاسم يتناول صحبة ساعة ، وأكثر أهل الحديث قد نقلوا الاستعمال في الشرع والعرف على وفق اللغة ، فوجب المصير إليه .

وعُلِم من قول البخاري : «أو رآه» أنه يُطلَق على من رآه رؤيةً ، ولو

على بعد ، وهل يُشتَرط في الرائي أن يكون بحيث يميز ما رآه أو يُكتفى بمجرد حصول الرؤية؟ محل نظر ، وعمل من ألَّف في الصحابة يدل على الثاني ، فإنهم ذكروا مثل محمد بن أبي بكر الصديق ، وإنما وُلد قبل وفاة الرسول ، ﷺ بثلاثة أشهر وأيام كما ثبت في الصحيح : «إن أمه أسماء بنت عميس ولدته في حجة الوداع ، قبل أن يدخلوا مكة» وذلك في أواخر ذي القعدة سنة عشر من الهجرة ، ومع ذلك فأحاديث هذا الضرب مراسيل. والخلاف الجاري بين الجمهور وبين أبي إسحاق الإسفراييني ومَنْ وافقه على رد المراسيل مطلقاً ، حتى مراسيل الصحابة لا يجري في أحاديث هؤلاء؛ لأن أحاديثهم لا من قبيل مراسيل الصحابة الذين سمعوا من النبي ﷺ ، بل من قبيل مراسيل كبار التابعين.

وهذا مما يُلغَز به ، فيقال: صحابي حديثه مرسل ولا يقبله من يقبل مراسيل الصحابة ، ومنهم ـ يعني أهل الحديث ـ من بالغ فكان لا يعد في الصحابة إلا من صَحِب الصحبة العرفية ، كما جاء عن عاصم الأحول قال: رأى عبدالله بن سَرْجِسَ النبيَّ ﷺ غير أنه لم تكن له صحبة. أخرجه أحمد؛ هذا مع كون عاصم قد روى عن عبدالله بن سَرْجِسَ هذا عدة أحاديث ، وهي عند مسلم ، وأصحاب السنن ، وأكثرها من رواية عاصم عنه ، ومن جملتها قوله: «إن النبي ﷺ استغفر له».

فهذا رأي عاصم: أن الصحابي من يكون صحب الصحبة العرفية؛ وكذا روي عن سعيد بن المسيِّب: أنه كان لا يعد في الصحابة إلا من أقام مع النبي ﷺ سنة فصاعداً ، أو غزا معه غزوة فصاعداً.

والعمل على خلاف هذا القول ، لأنهم اتفقوا على عَدّ جمع جَمٍّ في الصحابة ، لم يجتمعوا مع النبي ﷺ ، إلا في حجة الوداع ، ومن اشترط الصحبة العرفية أخرج مَن له رؤية ، أو من اجتمع به ، لكن فارقه عن قرب ، كما جاء عن أنس أنه قيل له: «هل بقي من أصحاب النبي ﷺ أحد غيرك؟ قال: لا» مع أنه كان في ذلك الوقت عدد كثير ممن لقيه من

الأعراب ، ومنهم من يشترط في ذلك أن يكون حين اجتماعه به بالغاً ، وهو مردودٌ أيضاً؛ لأنه مخرج ، مثل الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما ، ونحوه من أحداث الصحابة.

وقول البخاري: من المسلمين ، قَيْد يخرج به مَنْ صَحِبه أو مَنْ رآه من الكفار ، فأما من أسلم منهم بعد موته فإن كان قوله «من المسلمين» حالاً ، خرج مَنْ هذا صفته ، وهو المعتمد.

ويَرِدُ على التعريف من صحبه أو رآه مؤمناً به ثم ارتد بعد ذلك ، ولم يعد إلى الإسلام ، فإنه ليس صحابياً اتفاقاً ، فينبغي أن يُزاد فيه: ومات على ذلك.

وقد وقع في مسند أحمد حديث ربيعة بن أمية بن خَلَفٍ الجُمَحِيّ ، وهو ممن أسلم في الفتح ، وشهد مع رسول الله ﷺ حجة الوداع ، وحدَّث عنه بعد موته ، ثم لحقه الخِذْلانُ ، فلحِق في خلافة عمر بالروم ، وتنصَر بسبب شيء أغضبه ، وإخراج حديث مثل هذا مشكل ، ولعل من أخرجه لم يقف على قصة ارتداده والله تعالى أعلم. فلو ارتد ثم عاد إلى الإسلام لكن لم يره ثانياً ، بعد عوده ؛ فالصحيح أنه معدود في الصحابة ، لإطباق المحدثين على عدّ الأشعثِ بن قيس ونحوه ممن وقع له ذلك فيهم ، وإخراجهم أحاديثهم في المسانيد.

وقال العراقي: إن في ذلك نظراً كبيراً ، فإن الردة مُحبطة للعمل عند أبي حنيفة ، ونص عليه الشافعي في «الأم» وإن كان الرافِعي قد حكى عنه: أنها إنما تَبطُل بشرط اتصالها بالموت ، وهو المعتمد عند الشافعية؛ وحينئذ فالظاهر أنها محبطة للصحبة المتقدمة.

قلت: يعني على ما في «الأم» لا على ما للرافعي ، فتأمل.

ثم قال: والجواب عن هذا أنها محبطة لثوابها ، لا لعملها الذي هو الصحبة أو الرؤية ، فيُعتَدُّ به في عدِّه صحابياً ، وتخريج أحاديثه في المسانيد ، كما يُعتد بما فعله المسلم قبل ردته من صلاة وزكاة وصيام

ونحـوها ، فلا يعيد ذلك إذا ارتد ثم عاد إلى الإسلام ، وإن سقط ثوابه بالردة ، وحينئذ فلا نظر. أما من ارتد ثم عاد إلى الإسلام في حياته ـ ﷺ ـ فهـو داخل في الصحبة بدخوله الثاني في الإسلام اتفاقاً إن رآه ـ عليه الصـلاة والسـلام ـ مرة أخـرى بعـد العـود للإسـلام ، وعلى الصحيح المعتمـد: إن لم يره ثانياً ، والتقييد بالـرؤية المـراد به عند عدم المانع كالعمى ، فإن كان كابن أم مَكْتوم الأعمى فهو صحابي جزماً ، فالأحسن أن يُعبَّـر باللقاء بدل الرؤية.

قال الحافظ زين الدين العراقي: قولهم: مَنْ رأى النبي ـ ﷺ ـ هل المراد به: من رآه في حال نبوته ، أو أعم من ذلك حتى يدخلَ من رآه قبل النبوة ومات قبل النبوة على دين الحنيفة: كزيد بن عمرو بن نُفَيْل ، فقد قال النبي ﷺ: «إنـه يُبعَثُ أمـةً وَحْـدَهُ بيني وبين عيسى بن مَريم» رواه البغوي في «الصحابة» من حديث جابر ، ورواه أبو أسامة زيادة على رواية البخاري ، وأخرجه البزار من طريق جابر أيضاً ، والطَّيالِسِيُّ من طريق ابنه سعيد ، وقـد ذكره في الصحابة أبو عبدالله بن مَنْدَةَ. وكذلك لو رآه قبل النبوة ، ثم غاب عنه ، وعاش إلى بعد زمن البعثة ، وأسلم ثم مات ولم يره ، ولم أر من تعرض لذلك.

ويدل على أن المراد رآه بعد نبوته أنهم ترجموا في الصحابة لمن وُلِدَ للنبي ﷺ ، بعد النبوة ، كإبراهيم من مارية ، وعبدالله من خديجة ، ولم يترجموا لمن ولد له ﷺ قبل النبوة كالقاسم.

وأما من رآه وآمن به بعد البعثة وقبل الدعوة ، كوَرَقَةَ بن نَوْفل ، فإنه صحابي ، كما جزم به ابن الصلاح.

وهل يختص جميع ذلك ببني آدم ، أو يَعُمُّ غيرهم من العقلاء؟ محل نظر ، أما الجِنُّ فالراجح دخولهم ، لأن النبي ، ﷺ ، بُعِث إليهم قَطْعاً وهم مكلفون ، فيهم العصاة والطائعون؛ فمن عُرف اسمه منهم لا ينبغي التـردد في ذكره في الصحابة ، وإن كان ابن الأثير عاب ذلك على أبي

موسى ، ولم يستند في ذلك إلى حجة ، فليس ذلك بمعيب.

وأما الملائكة فيتوقف عدهم فيهم على ثبوت بعثته إليهم ، فإنَّ فيه خلافاً بين الأصوليين ، حتى نقل بعضهم الإجماع على ثبوته وعَكس بعضهم.

وهذا كله فيمن رآه وهو في قيد الحياة الدنيوية ، أما من رآه بعد موته وقبل دفنه فالراجح أنه ليس بصحابي ، وإلا لعد من اتفق أن يرى جسده الشريف المكرم وهو في قبره المعظم ، ولو في هذه الأعصار ، وكذلك من كشف له عنه من الأولياء ، فرآه كذلك على طريق الكرامة ، إذ حجة من أثبت الصحبة لمن رآه قبل دفنه أنه مستمر الحياة ، وهذه الحياة ليست دنيوية ، وإنما هي أخروية لا تتعلق بها أحكام الدنيا ، فإن الشهداء أحياءٌ ، ومع ذلك فإن الاحكام المتعلقة بهم بعد القتل جارية على أحكام غيرهم من الموتى ، وكذلك المراد بهذه الرؤية من اتفقت له ممن تقدم شرحه وهو يقظان ، أما من رآه في المنام وإن كان قد رآه حقّاً فذلك مما يرجِعُ إلى الأمور المعنوية لا الأحكام الدنيوية ، فلذلك لا يُعَدُّ صحابياً ، ولا يجب عليه أن يعمل بما أمر به في تلك الحالة.

طبقات الصحابة

وقد ذكر العلماء للصحابة ترتيباً على طبقات ، وقسمهم أبو عبدالله الحاكم في كتاب « علوم الحديث» إلى اثنتي عشرة طبقة.

الأولى: قوم أسلموا بمكة أول المبعث ، وهم سُبّاقُ المسلمين ، مثل خديجة بنت خُوَيلد والعشرة المبشرين بالجنة.

الثانية: أصحاب دار النَّدْوة ، بعد إسلام عُمر بن الخطاب حمل عُمر النبيُّ ﷺ ومن معه من المسلمين إلى دار النَّدْوة ، فأسلم لذلك جماعة من أهل مكة.

الثالثة: الذين هاجروا إلى الحبشة ، كجعفر بن أبي طالب ، وأبي

سَلَمَة بن عبد الأسد ، فراراً بدينهم من أذى المشركين ، أهل مكة .

الرابعة: أصحاب العقبة الأولى ، وهم سُبّاق الأنصار إلى الاسلام وكانوا ستة ، وأصحاب بيعة العقبة الأولى من العام المقبل وكانوا اثني عشر رجلاً ، والستة الأُوَلُ كلهم من الخزرج ، وهم أبو أُمامة أسْعد بن زُرارة ، وعـوفُ بن الحـارث بن رِفـاعـة وهـو ابن عَفْـراء ، ورافـعُ بن مالك بن العَجْلان ، وقُطبة بن عامر بن حديدة ، وعُقبةُ بن عامر بن نابي ، وجابر بن عبدالله بن رِئاب لا جابر بن عبدالله بن حَرام ، وعد بعض أهل السير فيهم عُبادة بن الصّامتِ بدل جابر بن عبدالله بن رِئاب ، وكل هؤلاء من الاثني عشر أهل بيعة العقبة الأولى إلا جابر بن رِئاب ، والسبعة الباقية هم : معاذُ ابن الحارث ابن رِفـاعـة وهـو ابن عَفْراء أيضاً ، وذَكوانُ بن عبد القَيس الزُّرَقِي ، وعبادةُ بن الصامت ، وأبو عبدالرحمن يزيدُ بن ثعلبةَ البَلَويّ ، والعباس بن عُبادة بن نَضْلة وهؤلاء من الخَزْرج أيضاً ، ومن الأوس : أبو الهَيْثَم بن التيهان من بني عبد الأشهل ، وَعُويم بن ساعدة .

الخامسة: أصحاب العقبة الثانية ، وكانوا سبعين من الأنصار ، منهم البـراء بن مَعْـرور ، وسعـدُ بن عبادة ، وعبدالله بن رَوَاحة ، وعبدالله بن حَرَام ، وسعدُ بن الرّبيع .

السادسة : المهاجرون الذين وصلوا إلى النبي ، ﷺ ، بعد هجرته ، وهو بِقباء ، قبل أن يبني المسجد ، وينتقل إلى المدينة المنورة .

السابعة: أهل بدر الكُبرى ، قال النبي ﷺ لعمر في قصة حاطِب بن أبي بَلْتَعَة كما في «البخاري» و«مسلم» : «وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ على هذه العصابةِ من أهلِ بدرٍ فقال : اعْمَلُوا ما شِئْتُم فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُم» وعند أحمد وأبي داود بالجزم ، ولفظه : «إن الله اطَّلَع على أهلِ بدرٍ» إلخ .

قال النوويُّ : الرجاء هنا راجع إلى عُمر ، لأن وقوع هذا الأمر محققٌ عند الرسول ، وقد قال العلماء : الترجي في كلام الله وكلام الرسول للوقوع .

وقال الحافظ: فيه بشارة عظيمة لم تقع لغير أهل بدر، واتفقوا على أن هذه البشارة فيما يتعلق بأحكام الآخرة، لا فيما يتعلق بأحكام الدنيا، من إقامة الحدود وغيرها.

الفرقُ بين الترجي بلعل وعسى في كلام الله تعالى.

قلت: فرق السُّهَيْلِيُّ بين الترجي في كلام الله تعالى بـ «بلعل» و«عسى»، فقال: إن الترجي بعسى واجب الوقوع وبلعل ليس كذلك، ونصه عند الكلام على آية ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢] في توبة أبي لُبابة في غزوة بني قُرَيْظة.

فإن قيل: إن القرآن نزل بلسان العرب، وليست عسى في كلام العرب بخبر، ولا تقتضي وجوباً، فكيف تكون واجبةً في القرآن، وليس بخارج عن كلام العرب؟ وأيضاً فإن لعل تعطي معنى الترجي، وليست من الله واجبة، فقد قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فلم يشكروا وقال: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أو يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤] فلم يتذكر ولم يخش، فما الفرق بين لعل وعسى حتى صارت عسى واجبة؟! قلنا: لعل تعطي الترجي، وذلك الترجي مصروف إلى الخلق، وعسى مثلها في الترجي، وتزيد عليها بالمقاربة، ولذلك قال: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْموداً﴾ [الاسراء: ٧٩] ومعنى الترجي مع الخبر بالقرب، كأنه قال: قَرُبَ أن يبعثك ربك، فالترجي مصروف إلى العبد كما في لعل، والخبر عن القرب والمقاربة مصروف إلى الله تعالى، وخبره حقٌّ، ووعده حَتْمٌ، فما تضمنته من الخبر فهو الواجب، دون الترجي الذي هو محالٌ على الله تعالى، ومصروف إلى العبد، وليس في لعل من تضمن الخبر مثل ما في عسى، فمِن ثَمَّ كانت عسى واجبةَ الوقوع إذا تكلم بها، ولم تكن لعل كذلك.

وهو كلام تُشَدُّ له الرحال، مبين عدم الإطلاق الوارد عن العلماء في كون الترجي في كلام الله تعالى للوقوع، فإنه بين اختصاص ذلك بعسى

دون لعل ، وأظهر الفرق الواضح .

الثامنة: الذين هاجروا بين بدر والحُدَيْبيَة .

التاسعة: أهل بيعة الرضوان الذين بايعوا بالحُدَيْبيَة تحت الشجرة ، قال ﷺ: «لا يَدْخُلُ النارَ إن شاءَ الله تعالى من أصحاب الشجرة أحدٌ» . رواه مسلم من حديث أم مبشر ، وفي حديث جابر عند مسلم وغيره: «لا يَدْخُلُ النارَ من شَهِدَ بَدْراً والحُدَيْبيَةَ» .

العاشرة: الذين هاجروا بعد الحُديبية ، وقبل الفَتْح كخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، قال الحافظُ العراقيُّ: أما التمثيل بأبي هُرَيْرة كما جاء عن بعضهم فلا يَصِحُّ ، لأنه هاجر عقيب خيبر في أواخرها ، وذلك كان في المحرم سنة سبع .

قلت: هذا سهو شديد فإن خيبر كانت بين الحُديبية والفتح ، وهي المغانم التي وعد الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام في سورة الفتح ، النازلة بعد الرجوع من الحديبية ، فالتمثيل بأبي هُريرة فيمَنْ أسلم بين الحديبية والفتح صحيحٌ .

الحادية عشرة: الذين أسلموا يوم الفتح ، وهم خلق كثير ، فمنهم من أسلم طائعاً ، ومنهم من أسلم كرهاً ، ثم حسن إسلامه .

الثانية عشرة: صبيان أدركوا الرسول ﷺ ، ورأوه يوم الفتح ، وبعده في حجة الوداع ، وغيرهما كالسائب بن يزيد .

قلت: هذا تقسيم الحاكم ، والعجب منه ، كيف أغفل الذين هاجروا إلى المدينة المنورة قبله ﷺ بإذنه ، كمصعب بن عُمير وغيره؟ ولعل هذه الطبقة هي المراد في قول ابن الصلاح: ومنهم من زاد على اثنتي عشرة طبقة .

وقال ابن سعد: إنهم خمس طبقات: **الأولى**: البدريون ، **والثانية**: من أسلم قديماً ممن هاجر عامتهم إلى الحبشة وشهدوا أُحُداً وما بعدها ،

الثالثة: من شهد الخندق وما بعدها ، **الرابعة**: مسلمة الفتح فما بعدها ، **الخامسة**: الصبيان والأطفال ممن لم يَغْزُ.

ما قيل في عدّة الصحابة رضي الله تعالى عنهم

وأما عدة أصحابه عليه الصلاة والسلام فمن رَامَ حصر ذلك رام أمراً بعيداً ، ولا يعلم حقيقة ذلك إلا الله تعالى ، لكثرة من أسلم من أول البعث إلى أن مات. عليه الصلاة والسلام ، وتفرقهم في البلدان والبوادي ، وقد روى البخاري في حديث كعب بن مالك في تخلفه عن غزوة تَبُوك: «وأصحاب رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ ، يعني الديوان» لكن قد جاء ضبطهم في بعض مشاهده كتبوك وقد روي أنه سار عام الفتح في عشرة آلاف من المقاتلة ، وإلى حنين في اثني عشر ألفاً ، وإلى حجة الوداع في تسعين ألفاً ، وإلى تبوك في سبعين ألفاً ، وقد روي أنه قُبِضَ عن مئة ألف وأربعة وعشرين ألفاً من رجل وامرأة.

وجاء عن أبي زُرْعَةَ الرّازي أنه قيل له: أليس يقال: إن حديث النبي ﷺ أربعة آلاف حديث؟ فقال ومن قال هذا قلقل الله أنيابه؟ هذا قول الزنادقة ، قبض ﷺ عن مئة وأربعة عشر ألفاً من الصحابة ممن روى عنه وسمع منه ، وفي رواية ممن رآه وسمع منه ، فقيل له: هؤلاء أين كانوا؟ وأين سمعوا منه؟ فقال أهل المدينة ، وأهل مكة ، ومن بينهما ، والأعراب ، ومن شهد معه حجة الوداع ، كل رآه وسمع منه بعرفة. قال محمد بن فَتْحون في «ذيل الاستيعاب»: أجاب أبو زرعة سؤال من سأله عن الرواة خاصة فكيف بغيرهم؟

وثبت عن الثَّوْرِيِّ فيما أخرجه الخطيب بسنده الصحيح إليه ، قال: من قدّم عليّاً على عثمان فقد أزرى باثني عشر ألفاً ، مات النبي ﷺ وهو عنهم راض. قال النَّوَوِيُّ: وذلك بعد النبي ﷺ باثني عشر عاماً بعد أن مات ، في خلافة أبي بكر في الردة والفتوح ، الكثير ممن لم تضبط أسماؤهم ، ثم مات في خلافة عمر في الفتوح ، وفي الطاعون العام ، وفي

عَمَواس ، وغير ذلك من لا يحصى كثرةً. يعني الثوريُّ بالاثني عشر ألفاً الذين اتفقوا على بيعة عثمان دون علي.

وعن الشافعي: قُبِضَ ﷺ عن ستين ألفاً ثلاثون بالمدينة ، وثلاثون في قبائل العرب وغيرها.

وعن أحمد: قُبِضَ وقد صلى خلفه ثلاثون ألف رجل. وكأنه عنى بالمدينة فلا يخالف ما فوقه.

وفي «المواهب»: روي عن مالك؛ أنه قال: مات بالمدينة من الصحابة عشرة آلاف.

قال الحافظ: لم يحصل لجميع من جمع أسماء الصحابة العُشر من أساميهم بالنسبة إلى قول أبي زُرْعة السابق؛ فإن جميع ما في «الاستيعاب» ثلاثة آلاف وخمس مئة ، وزاد عليه ابن فتحون قريباً من ذلك.

قال الذَّهَبِيُّ: لعل الجميع ثمانية آلاف إن لم يزيدوا لم ينقصوا.

وقال أيضاً: إن جميع من في «أُسْد الغابة» سبعة آلاف وخمس مئة وأربعة وخمسون نفساً ، وسبب خفاء أسمائهم أن أكثرهم أعراب ، وأكثرهم حضروا حجة الوداع.

قلت: التعرض لضبطهم على القول الصحيح أن كل من رآه مؤمناً صحابي ، صبيّاً كان أو امرأة ، أو أَمَة ، أو عبداً غير ممكن ، بل غير معقول ، فإن النفوس في زمانه ﷺ غير محصورة ولا مُدَوَّنة ، وأول من جعل الديوان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، فمن في المدينة وحدها من النساء والإماء والصبيان ممن رأوه لا يمكن حصرهم ، فضلاً عمن رآه من غيرها ممن لم يعلم أنه رآه ، فضلاً عن أن يعلم اسمه ، فالتعرض لضبطهم ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، محال.

واعلم أنه قد أجمع جمهور العلماء من السَّلَف والخَلَف على أنهم

خير الخلق ، وأفضلهم بعد النبيين ، وخواصُّ الملائكة المقربين ، والأحاديث الواردة في فضلهم كثيرة ، وسنأتي إن شاء الله تعالى بالبعض ، وكفاهم ثناء الله تعالى عليهم ورضاه ، وقد وعدهم الله تعالى مغفرة وأجراً عظيماً ، ووعد الله حق ، وصدق ، لا يخلَف. ﴿لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَهُوَ السَّميعُ العَليمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

بعض ما قيل في فَضل الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين

فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ والَّذينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهم﴾ [الفتح: ٢٩] إلى آخر السورة ، لما أخبر سبحانه وتعالى أن سيدنا محمداً ، ﷺ ، رسوله حقّاً من غير شكٍّ ، ولا رَيْب ، قال: محمد رسول الله مبتدأ وخبر. وقال البيْضاوي وغيره: جملةٌ مبينة للمشهود به ، يعني قوله تعالى: ﴿هو الّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهُدى وَدينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ على الدِّينِ كُلِّهِ وكَفَى باللهِ شَهيداً﴾ [الفتح: ٢٨] رادَّةٌ على الكفار في منع كتب اسمه ، ويجوز أن يكون محمد خبر مبتدأ محذوف ، صرح باسمه للعلم؛ دفعاً لتوهم غيره من الرسل ، أي ذلك الرجل الموصوف «محمد رسول الله». ورسول الله بيان أو نعت ، وهذه الآية مشتملة على كل وصف جميل ، ولا يكون تركيب أجمل منه ، ثم ثَنّى بالثناء على أصحابه فقال: ﴿والَّذينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهم﴾ [الفتح: ٢٩]. كما قال تعالى: ﴿فَسَوفَ يَأتِي اللهُ بِقَومٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، أَذِلَّةٍ عَلى المؤمِنينَ أَعِزَّةٍ عَلى الكافِرينَ﴾ [المائدة: ٥٤]. فوصفهم بالشدة والغلظة على الكفار ، والرحمة والبر بالأخيار ﴿رُحَماءُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: متعاطفون متوادّون بينهم ، كالوالد مع الولد ، وَصْفٌ لهم بكمالِ الرجولية والحكمة ، حيث وضعوا كل شيء موضعه ، وفي الحديث: «المُؤْمنون كالجَسَدِ الواحدِ إذا اشْتَكى عضوٌ منهُ تَدَاعى له سائرُ الجَسَدِ بالحُمّى والسَّهَر». وقال عليه الصلاة والسلام: «الرَّاحمونَ يرحَمُهُمُ الرَّحمـن ، ارْحَمُوا مَنْ في الأَرْضِ يَرْحَمْكُم مَنْ في السَّماءِ». رواه أحمد في «مسنده» ، وأبو داود ، وأبو بكر بن أبي شيبة ، والترمذي ، وقال:

حديث حسن صحيح ، وصححه الحاكم وقال: «لا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إلاّ مِنْ شَقِيٍّ ، ومن الترحم أن تُحِبَّ لكل مسلم ما تُحِبَّ لنفسك ، وتكرهَ له ما تكره لنفسك ، وتلقاه بوجه طَلْقٍ ، مع بَذْل السلام وطيب الكلام ، وبذل المعروف .

والآية في جميع أصحابه عند الجمهور ، وقيل: في أهل الحديبية ، وفيها إشارة إلى ما غلب من الصفات في كل واحد من الخلفاء كالمعية مع النبي ﷺ في أبي بكر ، والشدة على الكفار في عمر بن الخطاب وعلي ابن أبي طالب ، والرحمة على المؤمنين في عثمان بن عفان ، رضي الله عنهم أجمعين.

ثم أثنى عليهم بكثرة الأعمال مع الإخلاص التامِّ ، فمن نظر إليهم أعجبه سمتهم وهديهم لخلوص نياتهم وحسن أعمالهم.

قال مالك: بلغني أن النصارى كانوا إذا رَأَوُا الصحابة الذين فتحوا الشام ، يقولون: والله لَهؤلاء خيرٌ من الحواريين فيما بلغنا ، وصدقوا ، فإن هذه الأمة المحمدية ، خصوصاً الصحابة ، لم يزل ذكرهم مُعَظَّماً في الكتب ، كما قال تعالى: ﴿ذلكَ مَثَلُهم في التَّوراةِ ، ومَثَلُهُمْ في الإنجيلِ كَزَرْعٍ أخرَجَ شَطْأَهُ﴾[الفتح: ٢٩] أي: أفراخه التي تَنْبُتُ حوله؛ ﴿فآزَرَهُ﴾ شده وقواه ، ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ شَبَّ وطال ، واستحكم غِلْظَةً بعد الرقة ، ﴿فاسْتَوَى﴾ قوي واستقام ، ﴿على سُوقِهِ﴾ قصبه ، جمع ساق ، ﴿يُعْجِبُ الزُّرّاعَ﴾ قوته وغلظه وحسن منظره مثل الصحابة ، رضي الله عنهم ، في ذلك لأنهم بدؤوا في قلة وضعف ، فكثُروا وقَووا على أحسن الوجوه ، فآزروه عليه الصلاة والسلام ، وأيدوه ونصروه ، فهم معه كالشطء مع الزَّرْعِ ، ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ﴾. ومن هذه الآية انتزع مالك ، رحمه الله تعالى ، في رواية عنه ، تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة ، قال: لأنهم يغيظونهم ، ومن غاظه الصحابة فهو كافر ، وقد وافقه على ذلك جماعة من العلماء.

إفادة العلة الحصر ، قلت: وجه انتزاع مالك كفرهم من الآية هو أن العلة عنده تفيد الحصر ، فكان المعنى على ذلك لا يُغيظُ بهم إلا الكفار فدخل كل من غاظوه في الكفار ، وعلى جعله العلة للحصر بنى مذهبه في تحريم أكل لحوم الخيل والبغال والحمير ، لقوله تعالى: ﴿**وَالخَيْلَ والبِغَالَ والحَميرَ لِتَرْكَبُوها**﴾ [النحل: ٨] فجعل منفعتها محصورةً في الركوب ، لإفادة العلة الحصرَ عنده ، فَحَرُمَ أكلها.

وحكى النَّقّاشُ عن ابن عباس في هذه الآية أنه قال: الزَّرْعُ النبي ﷺ ، أشْطَأَ بأبي بكر ، فآزره عمر ، فاستغلظ بعثمان ، فاستوى على سوقه بعلي ، رضي الله تعالى عنهم. قال في «الجواهر»: وهو لين الإسناد والمتن ، والله أعلم بصحته.

بعض الأحاديث الواردة في فضلهم رضي الله عنهم

ومما هو وارد في فضلهم من الأحاديث:

ما أخرجه البخاري من حديث عبدالله ، أنه ﷺ قال: «خيرُ النّاسِ قَرْني ثُمَّ الّذينَ يَلُونهُمْ».

وأخرج الشيخان عن عِمْران بن حُصَين قال: قال ﷺ: «خيرُ أُمَّتي قَرْني ثم الّذينَ يَلُونهُم ثم الّذينَ يَلُونهُم». قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً. «ثُمَّ إنَّ بَعْدَهُمْ قوماً يَشْهَدُونَ ولا يُسْتَشْهَدُونَ ، وَيَخُونُونَ ولا يُؤتَمَنُونَ ، ويَنْذُرونَ ، ولا يَفُونَ ، ويَظْهَرُ فيهم السِّمَنُ». وفي رواية «وَيَحْلِفُونَ وَلا يُسْتَحْلَفونَ». وفي رواية لمسلم عن أبي هريرة: «ثُمَّ يَخْلِفُ قَوْمٌ يُحِبُّونَ السِّمانَةَ».

وروى النسائي ، وإسناده صحيح ، عن عمر ، قال: قال رسول الله ﷺ: «أكرِمُوا أصحابي فإنهُم خِيارُكُم ، ثم الّذين يلونَهُم ، ثم يَظهَرُ الكَذِب ، حتى إن الرَّجُل يَحلِفُ ولا يُسْتَحْلَفُ ، ويَشْهَدُ ولا يُسْتَشْهَدُ ، ألا مَنْ سَرَّهُ بُحْبُوحَةُ الجنةِ فَلْيَلْزَم الجماعَةَ ، فإنَّ الشَّيطانَ مع الفَذِّ وهو من

الاثنين أَبْعَدُ ، ولا يَخلوَنَّ رَجُلٌ بامرأةٍ فإنَّ الشَّيطانَ ثالثُهم ، وَمَنْ سرَّتْه حَسَنَتُهُ وساءَتْه سيِّئَتُهُ فهو مؤمنٌ» .

قال في «فتح الباري» : القرن أهل زمان واحد متقارب ، اشتركوا في أمر من الأمور المقصودة ، ويطلق على مدة من الزمن ، واختلفوا في تحديدها من عشرة أعوام إلى مئة وعشرين ، لكن لم أر من صرح بالتسعين ولا بمئة وعشرة ، وما عدا ذلك فقد قال به قائل ، وقال صاحب «المحكم» : هو القدر المتوسط من أعمار أهل كل زمن ، وهذا أعدل الأقوال ، المراد بقرن النبي ، ﷺ ، في الحديث السابق الصحابة ، وهم المقصودون في حديث بُرَيْدَةَ عند أحمد : «خيرُ هذه الأُمة القرنُ الذين بُعِثْتُ فيهم» . وحديث : «بُعِثْتُ مِنْ خَيرِ قُرونِ بَني آدمَ» .

وقد ضبط الأئمة من الحفاظ آخر من مات من الصحابة على الإطلاق بلا خلاف أبو الطُّفَيْل عامر بن واثِلَةَ اللَّيْثِيُّ كما جَزَمَ به مسلم ، وكان موتهُ سنة مئة على الصحيح ، وقيل : سنة سبع ومئة ، وقيل : سنة عشر ومئة ، وهو الذي صححه الذَّهبيُّ ، وهو مطابق لقوله ﷺ قبل وفاته بشهر : «على رأس مئة سنة لا يبقى على وجهِ الأرْض مِمَّنْ هُو عليها اليوم أحدٌ» . وفي رواية مسلم : «أرأيتكم لَيْلَتَكُم هذه ، فإنه ليس من نفسٍ منفوسةٍ تأتي عليها مئة سنة» . وأما ما ذكر أن عِكْراشَ بن ذؤيب عاش بعد يوم الجمل مئة سنة ، فذلك غير صحيح ، كما نص عليه الأئمة . وأما آخر الصحابة موتاً بالإضافة إلى النواحي : فقد أفردهم ابن مَنْدَةَ .

وقوله : «ثمَّ الذينَ يلونُهم» فهم أهل القرن الذين بعدهم ، وهم التابعون ، «ثم الذين يلونهم» وهم أتباع التابعين ، وقرن التابعين إن اعتبر من سنة مئة كان نحو السبعين أو الثمانين ، وأما الذين بعدهم فإن اعتبر منها كان نحواً من خمسين فظهر بهذا أن مدة القرن تختلف باختلاف أعمار أهل كل زمان ، والله تعالى أعلم .

واتفقوا أن آخر من كان من أتباع التابعين ، ممن يقبل قوله ، من عاش

إلى حدود العشرين ومئتين . وفي هذا الوقت ظهرت البدع ظهوراً فاشياً ، وأطلقت المعتزلة ألسنتها ، ورفعت الفلاسفة رؤوسها ، وامتُحِنَ أهل العلم ليقولوا بخلق القرآن ، وتغيرت الأحوال تغيراً شديداً ، ولم يزل الأمر في نقص إلى الآن . وظهر قوله ﷺ : «ثُمَّ يَفْشُو الكَذِبُ» ظهوراً بيِّنا حتى يَشْمَلَ الأقوال والأفعال والمعتقداتِ .

واقتضى هذا الحديث أن تكون الصحابة أفضل من التابعين؛ والتابعون أفضل من أتباع التابعين ، ويأتي تحرير هذا قريباً إن شاء الله تعالى .

وأخرج الشيخان ، وأحمد ، وأبو داود ، والترمذي عن أبي سعيد الخُدْري ، قال: قال النبي ، ﷺ : «لا تَسُبُّوا أصحابي ، فَلَوْ أنَّ أحدَكُم أَنْفَقَ مثل أُحُدٍ ذهباً ما بلغ مدَّ أحدِهِم ولا نَصيفَهُ» .

قال في «الفتح» : فيه إشعار بأن المراد بقوله : «أصحابي» أصحاب مخصوصون ، وإلا فالخطاب كان للصحابة ، وقد قال : «لَوْ أنَّ أحدَكُم أَنْفَقَ» وهذا كقوله تعالى : ﴿**لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ من قَبْلِ الفَتْحِ وقاتَلَ . . . الآية**﴾ [الحديد: ١٠] ومع ذلك فَنهيُ بعضِ من أدرك النبي ، ﷺ ، وخاطبه بذلك عن سب من سَبَقَهُ يقتضي زَجْرَ من لم يدرِكِ النبي ﷺ ولم يخاطبه عن سبِّ من سبقه من باب الأولى .

وسبب هذا الحديث أنه كان بين خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف شيء، فسبَّه خالدٌ، فذكر الحديث .

وقال في «المِرْقاة» : وكذا سائر طاعاتهم وعباداتهم وغَزَواتهم وخَدَماتهم .

وقال القاضي عِياض : المعنى : لا يَنَالُ أَحَدُكُم بإنفاقِ مثلِ أُحُدٍ ذهباً من الأجرِ والفضل ما ينال أحدهم بإنفاق مُدِّ طعام أو نصفه ، لما يقارنه من مزيد الإخلاصِ ، وصدق النية ، وكمالِ النفس .

وقال الطِّيْبيُّ : يمكن أن يُقال : إن فضيلتهم بحسب فضيلة

إنفاقهم ، وعِظَم موقعه ، كما قال تعالى : ﴿لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ من قَبْلِ الفَتْحِ وقاتَلَ . . . . الآية﴾[الحديد: ١٠] . وهذا في الإنفاق ، فكيف بمجاهدتهم وبذل أرواحهم بين يدي رسول الله ﷺ؟!

قال في «الفتح»: وذلك أنَّ الإنفاق والقتال كان قبل فتح مكة عظيماً ، لشدة الحاجة إليه ، وقلة المعتني به ، بخلاف ما وَقَعَ بعد ذلك ، لأن المسلمين كَثُروا بعد الفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، فإنه لا يَقَعُ ذلك الموقعَ ، والحديث مثل الآية في المعنى .

وأخرج عليُّ بن حَرب ، وخَيْثَمَة بن سليمان ، عن ابن عمر ، قال: «لا تسبُّوا أصحَابَ مُحمَّد ، فَلمنَامُ أحدِهِمْ سَاعةً خَير مِنْ عَملِ أحَدِكمْ عُمرَهُ» .

وأخرج المَحامليُّ ، والحاكم والطبراني عن عُوَيْم بن ساعِدَة مرفوعاً: «إنَّ الله اخْتارَني واختَار لي أصحاباً ، وجَعلَ لي فيهم وُزَراءَ وأنصاراً وأصهاراً ، فَمنْ سَبَّهمْ فَعلَيْهِ لَعْنةُ الله والملائكةِ والنّاسِ أجمعينَ ، لا يَقْبَلُ الله منه صرْفاً ولا عَدْلاً ، وسيأتي قوم يَسبُّونهُم ويَسْتَنقصُونهم فلا تجُالِسوهم ، ولا تُشاربوهم ، ولا تُؤاكِلُوهم ، ولا تُنَاكِحُوهم» .

وروى الترمذي وحسنه ، عن جابر ، عن النبي ﷺ قال: «لا تَمسُّ النار مسلماً رآني أو رأى مَنْ رآني» .

وروى عبد بن حُميْد ، عن أبي سعيد الخُدري ، وابن عساكر عن واثِلَة: «طُوبَى لِمَنْ رآني ، ولِمَنْ رأى من رآني وَلِمَنْ رأى من رأى من رآني» .

وروى الطبراني ، والحاكم عن عبدالله بن بسر: «طُوبى لِمَنْ رآني وآمَنَ بي ، وطُوبى لمن رأى من رآني ، ولمن رأى من رأى من رآني وآمن بي ، طُوبى لهم وحُسْنُ مَآبٍ» .

وفي «شرح السنة» عن أنس ، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ

أصحابي في أُمَّتي كَالمِلْحِ في الطَّعامِ ، لا يَصْلُحُ الطَّعامُ إلا بِالمِلْحِ ».
قال الحسن: فقد ذَهَبَ مِلْحُنا ، فكيف نصلُحُ؟!

وروى الترمذي عن عبدالله بن بُرَيْدة ، عن أبيه ، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ أحَدٍ من أصحابي يَموتُ بأرضٍ إلا بُعِثَ قائداً ونوراً لهم يوم القيامة» انتهى. هذا بعضٌ قليلٌ مما قيل في فضل الصحابة جملة.

وأما السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، الداخل فيهم العشرة المبشرون بالجنة ، فلا يحصي النَّزْرَ من مناقبهم إلا الدَّفاتِرُ الضخامُ ، كما هو مسطورٌ فيها عن الجَهَابِذَةِ الأعلام.

الترتيبُ في فضلِ الصَّحابةِ.

واعلم أن أفضل الصحابة على الإطلاق عند أهل السنة إجماعاً أبو بكر ، ثم عمر رضي الله تعالى عنهما ، والمشهور عند أهل السنة تقديم عثمان عن علي رضي الله تعالى عنهما ، وذهب بعض السلف إلى تقديم علي على عثمان ، وممن قال به سُفيان الثَّوريُّ ، ويقال: إنه رجع عنه ، وقال ابن خُزَيْمَةَ وطائفة قبله وبعده ، وقيل: لا يَفْضُلُ أحدهما على الآخر ، قاله مالك في «المدونة» ، وتبعه جماعة منهم يَحيى القطان ، وقال ابن مَعِين: من قال: أبو بكر وعُمر وعثمان وعلي ، وعرف لعلي سابقته وفضيلته فهو صاحب سنة ، ولا شك أن من اقتصر على عثمان ولم يعرف لعلي فضيلته فهو مذموم قاله في «فتح الباري».

قلت: قولـه إن سفيان الثوري قيل: إنه رجع عن تقديم علي على عثمان هذا هو المتعين إن كان الثوري هو القائل بذلك ليوافق ما مر مما أخرجه الخطيب بسند صحيح أنه قال:

«من قدَّم علياً على عثمان فقد أزرى باثني عشر ألفاً ، مات النبي ﷺ وهو عنهم راض». والأظهر عندي أن يكون القائل بذلك سفيان بن عُيَيْنة ، لما ذكر عنه ابن عَدِيّ أنه كان فيه شيء من التشيع ، والثوري لم يقل أحد

عنه ذلك ، وما قاله ابن معين في حق عثمان وعلي قال به قبله مَعْمر في حق الشيخين ، فقد نقل عبد الرزاق عن معْمر أنه قال لو أن رجلاً قال: عمر أفضل من أبي بكر ما عنفته ، وكذلك لو قال: علي أفضل عندي من أبي بكر وعمر لم أعنفه ، إذا عرف فضل الشيخين وأحبهما وأثنى عليهما بما هما أهله ، قال عبد الرّزاق : فذكرت ذلك لِوَكيع فأعجبه واشتهاه .

وحجة الجمهور في تقديم عثمان على علي : ما أخرجه الشيخان عن عبدالله بن عمر ، قال: كنا نخير بين الناس في زمان رسول الله ، ﷺ ، فنخير أبا بكر ثم عمر ثم عثمان رضي الله عنهم . وفي رواية عبيدالله بن عمر ، عن نافع : كنا في زمان النبي ، ﷺ ، لا نعدل بأبي بكر أحداً ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم نترك أصحاب النبي ، ﷺ ، فلا نفاضل بينهم . رواه البخاري أيضاً. وقوله: لا نَعْدِلُ بأبي بكرٍ أحداً ، أي: لا نجعل له مثلاً.

ولأبي داود من طريق سالم ، عن ابن عمر ، كنا نقول ورسول الله ، ﷺ ، حيٌّ : «أفضلُ أمةِ النبي ، ﷺ ، بعده أبوبكر ثم عمر ثم عثمان» زاد الطَّبَرانيُّ في رواية : «فيسمع رسول الله ﷺ ذلك فلا يُنْكِرُهُ».

وروى خَيْثَمَةُ بن سليمان في «فضائل الصحابة» من طريق سهيل بن أبي صالح ، عن أبيه ، عن ابن عمر: «كنا نقول: إذا ذهب أبو بكر وعمر وعثمان استوى الناس». فيسمع النبي ﷺ ذلك فلا ينكره.

وقد ادّعى ابن عبدالبر أن حديث الاقتصار على الثلاثة : أبي بكر وعمر وعثمان ، خلاف قول أهل السنة : إن علياً أفضل الناس بعد الثلاثة ، وتعقب بأنه يلزم من سكوتهم إذ ذاك عن تفضيله عدم تفضيله على الدوام ، وبأن الإجماع المذكور إنما حدث بعد الزمن الذي قيده ابن عمر ، فيخرج حديثه عن أن يكون غلطاً ، وابن عمر قد اعترف بتقديم علي على غيره ، فالمقطوع به عند أهل السنة القول بأفضلية أبي بكر ثم عمر ، واختلفوا فيمن بعدهما ، والجمهور على تقديم عثمان كما مر.

ونقل البَيْهَقِيُّ في «الاعتقاد» بسنده إلى أبي ثور، عن الشافعي أنه قال: أجمع الصحابة وأتباعهم على أفضلية أبي بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي.

وقال الإمام أبو مَنْصور البَغْدادي: أصحابُنا مجمعون، على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة، ثم الستة تمام العشرة، والمسألة اجتهادية، ومستندها أن هؤلاء الأربعة اختارهم لخلافة نبيه، وإقامة دينه، فمنزلتهم عنده بحسب ترتيبهم في الخلافة، قاله في «المواهب».

قلت: كون المسألة اجتهادية يأباه ما مر من الأحاديث عن ابن عمر: أن النبي عليه الصلاة والسلام يسمع ذلك ولا ينكره، ومعلومٌ أن سكوته عليه الصلاة والسلام من سنته، اللهم إلا أن يكون الاجتهاد تعضيداً للأحاديث لكونها خبر آحاد قابلة للتعضيد.

والعشرة المبشرون بالجنة: هم الخلفاء الأربعة، وطَلْحة، والزُّبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمن بن عَوْف، وأبوعبيدة عامر بن الجَرّاح. وحديث تبشيرهم جميعاً بالجنة رواه الترمذي عن سعيد بن زَيْد. وروى البخاري عن أبي موسى الأشْعَرِيِّ تبشير أبي بكر وعمر وعثمان بها يوم بئر أريس، حين كان بواباً على النبي، ﷺ، في حديث طويل. وجمع ابن حجر العَسْقَلاني شيخ الإسلام العشرة المبشرين بالجنة في بيت واحد، فقال:

لَقَدْ بَشَّرَ الهَادِي مِنَ الصَّحْبِ زُمْرَةً بِجَنَّاتِ عَدنٍ كلُّهُمْ فَضلُهُ اشْتَهَرْ
سَعِيدٌ زُبَيرُ سَعدُ طَلحةُ عَامِرٌ أبو بَكْر عُثْمانُ ابنُ عَوْفٍ عَلي عُمَرْ

قال في «فتح الباري»: وذهب قوم إلى أن أفضل الصحابة من استُشْهد في حياته ﷺ، وعين بعضهم منهم جعفر بن أبي طالب، ومنهم من ذهب إلى العباس، وهو قول مرغوب عنه، ليس قائله من أهل السنة، بل ولا من أهل الإيمان، ومنهم من قال: أفضلهم مطلقاً عمر، متمسكاً

بالحديث الصحيح الذي في المنام ، إذ فيه في حق أبي بكر «وَفي نَزْعِهِ ضَعْفٌ» وهو تمسك واه.

قال في «المواهب»: فإن قلت: من اعتقد في الخلفاء الأربعة الأفضلية على الترتيب المعلوم ، ولكن محبته لبعضهم تكون أكثر هل يكون آثماً به أم لا؟

فأجاب شيخ الإسلام الوَليُّ ابن العراقي: إن المحبة قد تكون لأمر دُنيويٍّ ، فالمحبة الدينية لازمة للأفضلية ، فمن كان أفضل كانت محبتنا الدينية له أكثر ، فمتى اعتقدنا في واحد منهم أنه أفضل ، ثم أحببنا غيره من جهة الدين أكثر كان تناقضاً ، نعم ، إن أحببنا غير الأفضل أكثر من محبة الأفضل لأمر دنيوي كقرابة وإحسان فلا تناقض في ذلك ، ولا امتناع ، فمن اعترف بأن أفضل الأمة بعد نبيها ﷺ أبو بكر ثم عُمَرَ ، ثم عثمان ثم علي لكنه أحب علياً أكثر من محبة أبي بكر ، فإن كانت المحبة المذكورة محبة دينية فلا معنى لذلك ، إذ المحبة الدينية لازمة للأفضلية كما قررناه ، وهذا لم يعترف بأفضلية أبي بكر إلا بلسانه ، وأما بقلبه فهو مفضل لعلي ، لكونه أحبه محبة دينية زائدة على محبة أبي بكر ، وهذا لا يجوز ، وإن كانت المحبة المذكورة محبة دنيوية لكونه من ذرية علي ، أو غير ذلك من المعاني ، فلا امتناع فيه.

وقد روى الطَّبَريُّ في «الرياض» ، وعزاه للمَنْلا في سيرته ، عن أنس مرفوعاً: «إن الله افْتَرَضَ عليكم حب أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، كما افترض الصلاةَ والزكاةَ والصومَ والحجَّ ، فمن أنكر فضلَهم فلا تقبل منه الصلاةُ ولا الزكاةُ ولا الصومُ ولا الحجُّ».

وأخرج الحافظ السِّلَفِيُّ في مشيخته من حديث أنس مرفوعاً: «حُبُّ أبي بكر واجب على أمتي».

وأخرج الأنْصاريُّ عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا بكر ليت أني لقيت إخواني» فقال أبو بكر: يا رسول الله ، نحن إخوانك ، قال: «لا ،

أنتم أصحابي ، إخواني الذين لم يَرَوني ، وصدَّقوا بي ، وَأَجَلُّوني حتى إني لَأَحَبُّ إلى أحدهم من ولده ووالده» قالوا: يا رسول الله ، أما نحن إخوانك؟ قال: «لا ، بل أنتم أصحابي ، ألا تحب يا أبا بكر قوماً أحبوك بحبي إياك ، قال: فأحبهم ما أحبوك بحبي إياك».

ثم اعلم أن الصحابة على ثلاثة أصناف ، الأول: المهاجرون ، والثاني: الأنصار وهم الأوس والخزرج وحلفاؤهم ومواليهم ، والثالث: من أسلم يوم الفتح ، قال ابن الأثير في «الجامع»: والمهاجرون أفضل من الأنصار ، وهذا على سبيل الإجمال. وأما على سبيل التفصيل: فإن جماعة من سُبّاق الأنصار أفضل من جماعة من متأخري المهاجرين ، وإنما سباق المهاجرين أفضل من سُبّاق الأنصار ، ثم هم بعد ذلك متفاوتون ، فرب متأخر في الإسلام أفضل من متقدم عليه مثل عمر بن الخطاب وبلال بن حَمامة.

في فضل أحد من المتأخرين على أحد من الصحابة

وأما ما تقدم من كون الحديث يقتضي أن تكون الصحابة أفضل من التابعين ، والتابعون أفضل من أتباع التابعين فهو حق، ولكن هل هذه الأفضلية بالنسبة إلى المجموع أو الأفراد؟ محل بحث .

قال في «الفتح» : وإلى الثاني نحا الجمهور، والأول قول ابن عبدالبر، والذي يظهر أن من قاتل مع النبي ﷺ، أو في زمانه بأمره أو أنفق شيئاً من ماله بسببه لا يعدله في الفضل أحد بعده كائناً مَنْ كان، وأما من لم يقع له ذلك فهو محل البحث ، والأفضل في ذلك قوله تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي مِنْكُم مَنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الفَتْحِ وقاتَلَ أُولئكَ أَعظَمُ درَجةً مِنَ الذينَ أَنفَقُوا مِنْ بعْدُ وقاتَلُوا وكُلًّا وعَدَ اللهُ الحُسْنَى﴾ [الحديد: ١٠].

وقال ابن عبد البر: إنه قد يكون فيمن يأتي بعد الصحابة أفضل ممن كان في جملة الصحابة ، وإن قوله عليه الصلاة والسلام: «خَيرُ النّاس قَرني» ليس على عمومه ، بدليل ما يجمع القرن من الفاضل والمفضول ،

وقد جمع قرنه ، عليه الصلاة والسلام ، جماعة من المنافقين المظهرين للإيمان ،وأهل الكبائر الذين أقام عليهم ، أو على بعضهم الحدود. واحتج بما رواه أبو أمامة أنه ، عليه الصلاة والسلام ، قال: «طُوبَى لِمَنْ رآني وآمَن بي ، وطُوبى سَبْعَ مَرّاتٍ لِمَنْ لم يَرَني وآمن بي». وبحديث: «مَثَلُ أُمّتي مثلُ المَطر لا يُدْرى أولهُ خيرٌ أم آخرُه». قال في «الفتح»: وهو حديث حسن ، له طرق قد يرتقي بها إلى الصحة ، وأغرب النَّوَوِيُّ فعزاه في «فتاويه» إلى «مسند» أبي يعلى بسند ضعيف ، عن أنس ، مع أنه عند الترمذي بإسناد أقوى منه من حديث أنس ، وصححه ابن حبان من حديث عمار.

وقد روى ابن أبي شَيْبَةَ من حديث عبدالرحمن بن جُبَير بن نُفَير ـ أحد التابعين ـ بإسناد حسن ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيُدْرِكَنَّ المَسِيحُ أقواماً إنهم لَمِثْلُكُم أو خيرٌ ثلاثاً».

واحتج أيضاً بحديث عمر في «مسند» أبي داود الطَّيالِسيِّ ، قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ ، فقال: «أتدرون أيُّ الخلق أفضل إيماناً؟» قلنا: الملائكة ، قال: «وحُقَّ لهم بل غيرهم» قلنا: الأنبياء ، قال: «وحُقَّ لهم بل غَيرهم» ثم قال ﷺ: «أفضلَ الخلق إيماناً قومٌ في أصلاب الرجال ، يؤمنون بي ولم يَرَوْني ، فهم أفضل الخلق إيماناً». وإسناده ضعيف فلا يحتج به ، لكن روى أحمد ، والدارمي ، والطَّبرَاني ، عن أبي عُبيدة بن الجَرّاح : يا رسول الله أأحدٌ منا؟ أسلَمنا معك وجاهدنا معك؟ قال: «قومٌ يكونُونَ مِنْ بعدكم ، يؤمنون بي ولم يَرَوْني» . وإسناده حسن ، وقد صححه الحاكم .

واحتج أيضاً بأن السبب في كون القرن الأول خير القرون أنهم كانوا غُرباء في إيمانهم ، لكثرة الكفار حينئذ ، وصبرهم على أذاهم ، وتمسكهم بدينهم ، قال: فكذلك أواخرهم إذا أقاموا الدين ، وتمسكوا به ، وصبروا على الطاعة حين ظهور المعاصي والفتن. كانوا أيضاً عند

ذلك غُرباء ، وزكَتْ أعمالهم في ذلك الزمان كما زَكَتْ أعمالُ أولئك. ويشهد له ما رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: «بَدَأَ الإسلامُ غريباً وسيعودُ غريباً كما بَدَأَ فطوبى للغرباءِ».

واحتج بما روي أيضاً من أن عمر بن عبدالعزيز لما ولي الخلافة كتب إلى سالم بن عبدالله أن اكتب لي بسيرة عمر بن الخطاب لأعمل بها ، فكتب إليه سالم: «إن عَمِلْتَ بسيرةِ عُمر فأنتَ أَفْضَلُ من عمر ، لأن زمانَكَ ليس كزمانِ عُمر ، ولا رِجالَكَ كرجال عُمر. وكتب إلى فقهاء زمانه ، فكلهم كتب بمثل قول سالم.

قلت: وجه الاحتجاج لكلام سالم ومن معه هو أنهم قالوا له: «لَوْ عَمِلْتَ بِعَمَلِ عُمر كنتَ خيراً منه». فدل على أن العامل بخير من عمل الصحابي أو بمثله يكون خيراً منه.

واحتج بما رواه أبو داود ، والترمذي من حديث أبي ثَعْلَبَةَ رفعه: «تَأْتي أيامٌ للعامل فيها أجرُ خمسين». قيل: منهم أو منا يا رسول الله؟ قال: «بل منكم» وهو شاهد لحديث: «مَثَلُ أُمّتي مَثَلُ المطر». هذا ما أورده من الاحتجاج ، ثم قال: فهذه الأحاديث تقتضي مع تواتر طرقها وحسنها التسوية بين أول هذه الأمة وآخرها في فضل العمل لا أهل بدر والحُدَيْبِيَة.

قال في «الفتح»: صرَّحَ ابن عَبد البَرِّ في كلامه باستثناء أهل بدر والحُدَيْبِيَة ، فليس كلامه على الإطلاق في حقِّ جميع الصحابة ، والذي ذهب إليه الجمهور أن فضيلة الصحبة لا يَعْدِلُها عمل لمشاهدة رسول الله ﷺ ، فأما من اتفق له الذب والسبق إليه بالهجرة أو النصرة وضبط الشرع المُتَلَقَّى عنه ، وتبليغه لمن بعده ، فإنه لا يعدِلُه أحدٌ ممن يأتي بعده ، لأنه ما من خَصْلَةٍ من الخِصال المذكورة إلا وللذي سبق مثل أجر من عمل بها من بعده فظهر فضلهم.

ومحصل النزاع يَتَمَحَّضُ فيمن لم يحصل له إلا مجرد المشاهدة كما تقدم ، فإن جمع بين مختلف الأحاديث المذكورة كان متجهاً على أن

حديث «للعامِل منهُم أجرُ خمسينَ منكم» لا يَدُلُّ على أفضلية غير الصحابة على الصحابة ، لأن مجرد زيادة الأجر لا يستلزم ثبوت الأفضلية المطلقة . وأيضاً فالأجر إنما يقع تفاضله بالنسبة إلى ما يماثِلهُ في ذلك العمل ، فأما ما قارَبَهُ ممن شاهد النبي ﷺ من زيادة فضيلة المشاهدة ، فلا يَعْدِلُهُ فيها أحدٌ ، فبهذه الطريق يمكن تأويل الأحاديث المتقدمة ، وأما حديث أبي عُبَيْدة ، فلم تَتَّفِق الرواة على لفظه ، فقد رواه بعضهم بلفظ الخيرية كما مر ، ورواه بعضهم بلفظ : «يا رَسُولَ اللهِ ؛ هل من قومٍ أعظمُ مِنّا أجراً؟» . الحديث أخرجه الطَّبَرانيُّ ، وإسناد هذه الرواية أقوى من إسناد الرواية المتقدمة ، وهي توافق حديث أبي ثَعْلَبَة ، وقد مر الجواب عنه ، انتهى .

ما قيل في محبة الصحابة

إذا علمت ما ذكر من فضل الصحابة ، فاعلم أن محبتهم واجبة على كل مؤمن ، وبغضهم وسبهم من أكبر الكبائر إن لم يكن كفراً ، كما يأتي إن شاء الله تعالى قريباً . وذلك أن محبة من أحبه الرسول عليه الصلاة والسلام كآل بيته وأصحابه ، رضي الله تعالى عنهم ، علامة على محبة رسول الله ، ﷺ ، كما أن محبته عليه الصلاة والسلام علامة على محبة الله تعالى ، وكذلك عداوة من عاداهم ، وبغض من أَبْغَضَهُم وسبهم ، فمن أحب شيئاً أحب من يحب ، وأبغض من يبغض ، قال الله تعالى : ﴿لا تجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ ورَسُولَهُ﴾ [المجادلة : ٢٢] فحب آل بيته ، عليه الصلاة والسلام ، وأصحابه ، وأولاده ، وأزواجه ، من الواجبات المتعينات ، وبغضهم من الموبقات المهلكات . ومن محبتهم وجوب توقيرهم وبرهم ، والقيام بحقوقهم ، والاقتداء بهم ، بأن يمشي على سننهم وآدابهم وأخلاقهم ، والعمل بأقوالهم مما ليس للعقل فيه مجال ، وحسن الثناء عليهم ، بأن يُذْكروا بأوصافهم الجليلة على قصد التعظيم ، فقد أثنى الله تعالى عليهم في كتابه المجيد كما مر في آية : ﴿مُحَمَّدٌ رسول الله . . .﴾ إلخ . ومن أثنى الله تعالى عليه ، فهو واجب الثناء ، والاستغفار لهم . قالت عائشة ـ رضي الله

تعالى عنها ـ كما رواه مسلم وغيره: «أُمِرُوا أن يَسْتَغْفِروا لأصحاب رسول الله ، ﷺ ، فَسَبُّوهُم» وفائدة الاستغفار لهم عائد على المستغفر ، قال سَهْل بن عبدالله التُّسْتَرِيُّ: «لم يؤمن بالرسول ﷺ من لم يوقر أصحابه ، ولم يعز أصحابه.

ما قيل فيمن سَبَّ الصحابةَ

وقد مرت الأحاديث الواردة في النهي عن سبهم ، والتعرض لهم ، وقد قال ﷺ كما رواه الخِلَعِيُّ: «أيُّـها الناس احفَظُوني في أختاني وأصهاري وأصحابي ، لا يطالِبَنَّكُمُ الله بمظْلِمة أحد منهم ، فإنها ليست مما يُوهب».

وقال عليه الصلاة والسلام ، كما رواه الترمذي وابن حبان في «صحيحه»: «اللهَ اللهَ في أصحابي ، لا تَتَّخِذوهم غَرَضاً من بعدي ، من أحبَّهُم فقد أحبَّني ، ومن أبغضهم فقد أبغضني ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله فيوشكُ أن يأخذه الله». والغرض: الهدف الذي يرمى فيه؛ فهو نهي عن رميهم ، مؤكداً ذلك بتحذيرهم الله منه ، وما ذلك إلا لشدة الحرمة.

قال العلماء: في هذا الحديث إشارة إلى أن حبهم من الإيمان ، وبغضهم كفر ، لأنه إذا كان بغضهم بغضاً له ، كان كفراً بلا نزاع ، لحديث: «لَنْ يُؤمنَ أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من نفسهِ». وهذا دالٌّ على كمال قربهم منه ، بتنزيلهم منزلة نفسه ، حتى كأن أذاهم واقع عليه ، وواصل إليه ﷺ ، وقد قال مالك بن أنس وغيره فيما ذكره القاضي عِياض: «مَنْ أبْغَضَ الصحابةَ؛ فليس له في فـيءِ المسلمينَ حقٌّ» قال: ونزع في آية الحشر: ﴿والّذينَ جاؤُوا مِنْ بَعْدِهِم يَقُولُونَ رَبَّنا اغْفِرْ لَنا وَلإِخْوانِنَا الّذينَ سَبَقُونا بالإيمانِ﴾ [الحشر: ١٠]. وقد مر عنه في بحث فضل الصحابة أنه أخذ كفر مبغضي الصحابة من قوله تعالى: ﴿لِيَغيْظَ بِهِمُ الكُفَّار. . .﴾ [الفتح: ٢٩]. قال في «المواهب»: فسبهم والطعن فيهم ، إذا كان مما يخالف الأدلة القطعية كفرٌ ، كقذف عائشة ، رضي الله تعالى

عنها ، وإلا فبدعة وفسق.

وقال في «فتح الباري»: اختُلِف في سابِّ الصحابي ، فقال عياض: ذهب الجمهور إلى أنه يُعَزَّرَ ، وعن بعض المالكية يقتل ، وخَصَّ بعض الشافعية ذلك بالشيخين والحسنين؛ فحكى القاضي حسين في ذلك وجهين ، وقواه السُّبْكيُّ في حق من كَفَّرَ الشيخين ، وكذا من كفر من صرح النبي ﷺ بإيمانه أو بتبشيره بالجنة إذا تواتر الخبر بذلك عنه ، لما تضمن من تكذيب رسول الله ﷺ.

وقد شفيت الغليل في الكلام على مبغض الصحابة في كتابي على الخلافة والباغية بما لا مزيد عليه ، يسر الله طبعه ليعم به النفع.

الإمساك عما شَجَرَ بين الصحابة

ومما هو واجبٌ بإجماع المسلمين في حق الصحابة ، رضوان الله عليهم أجمعين ، الإمساك عما شجر بينهم ، أي وقع من الاختلاف ، وقد قال ﷺ: «إذا ذُكِرَ أصحابي فَأَمْسِكُوا». فلا يجوز للمسلم أن يصغي بأُذنِهِ إلى أخبار المؤرخين ، وجهلة الرواة ، وضُلّال الشيعة والمبتدعين القادحة في أحد منهم.

وقد أخبر عليه الصلاة والسلام ، أن ما وقع بينهم مغفور لهم ، فقد أخرج نُعَيْم بن يزيد بن أبي حَبيب مرسلًا ، قال ﷺ: «تَكونُ بَيْنَ أَصْحابي فتنة يغفِرُها الله لهم بسابق صُحبتي لسابقتهم ، إن اقتدى بهم قومٌ من بعدِهم كَبَّهُمُ اللهُ تعالى في نار جَهَنَّمَ». هكذا لفظ «كنز العمال». ورويته عن شيخي عبدالله بن محمد سالم رحمه الله تعالى ، وهو أول حديث رويته منه بلفظ: «سَتَكُونُ زَلَّةٌ بَيْنَ أَصْحابي يَغْفِرُها اللهُ لهم بسابق صُحبتي ، فيتأسى بهم أقوامٌ من بعدِهم؛ فَيَكُبُّهُمُ الله على مناخِرِهم في النّار». فبين الروايتين اختلافٌ قليل في بعض الألفاظ ، والمعنى مُتحِدٌ.

وإذا علمت أن ما وقع بينهم مغفور بنص الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام ، لم يبق إلا أن تلتمسَ لهم أحسن التأويل ، وتُخرِجَ لهم

أصوب المخارج إذ هم أهل لذلك ، كما هو مشهورٌ من مناقِبهم ، ومعدودٌ من مآثرهم. وما وقع بينهم من المنازعات والمحاربات ، له محاملُ وتأويلاتٌ واضحةٌ ، جليّةٌ لِمَنْ لَمْ يُعْمِ الله تعالى بصيرته؛ وها أنا أوضح ذلك لمن يريد الحق ، وأراد الله تعالى له الهداية. فأقول:

اعلم أن أصحاب النبي ﷺ كلهم عُدولٌ مجتهدون ، وقد ثبت في الحديث الصحيح: «إن المجتهدَ إذا اجتهدَ وأصاب فله أجرانِ ، وإذا اجتهدَ وأخطأَ فلهُ أجرٌ واحدٌ».

وسبب الخلاف بينهم هو أن عائشةَ وطلحةَ والزبير ، رضي الله تعالى عنهم ، قالوا: إن متابعة علي ، رضي الله تعالى عنه ، وبيعته لا تمكن حتى يُمَكِّنَ ورثةَ عثمان بن عفان ، رضي الله تعالى عنه ، مِنْ قتَلَتِهِ؛ فيقتصون منهم أو يَعْفون ، وقال علي رضي الله تعالى عنه: لا يَصِحُّ تمكينُهم منهم حتى يبايعَ الجميعُ ، ويترافَعَ إليه ورثةُ المقتولِ والقاتلونَ ، ويحكم بينهم بحكم الله تعالى. فأصل النزاع هو هذا.

وهذه مسألة اجتهادية ، فليس بينهم نزاعٌ في طلب الإمارة ، ولا في نزاع علي رضي الله تعالى عنه ، ومعاوية رضي الله تعالى عنه ، ابن عم عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه ومعه ورثته ، وهو طالبٌ بدمه ، مريدٌ للقِصاص من القاتلين الذين مع علي ، رضي الله تعالى عنه ، كما طلبت منه ذلك الجماعة المتقدمة ، وليس معاوية طالباً الإمارة ، ولا منازعاً فيها ، ولأجل كون المسألة اجتهادية ولم يتضح حكمها ، اعتزل كثير من كبراء الصحابة الفِرْقتين ، ولم يَدْخُلوا في القتال ، كسعد بن أبي وقاص ، وعبدالله بن عُمر ، ومحمد بن مَسْلمة ، ودخل بعض من اعتزل الفرقتين مع علي ، رضي الله تعالى عنه ، لما مات عمار بن ياسر لكونه ثبت عنده قوله ﷺ: «يا وَيْحَ عَمّارٍ تَقْتُلُهُ الفئةُ الباغيةُ». واستمر بعضهم على اعتزال الفِتَن إلى أن ماتَ ، كالثلاثة المذكورين ، لكونهم لم يثبتْ عندهم الحديث ، أو غير ذلك ، وبهذا الحديث ظهر ، وبحديث الخوارج أن عليّاً

هو المصيبُ ، فلهُ أجران ، وأن معاويةَ ومن معهم هم المُخطئون؛ فلهم أجرٌ واحدٌ؛ هذا ما يوضح الصواب لمن أراد الله به الخير والرشاد ، وأما المتعنت فلا هداية له إلى يوم المعاد.

ثم إني أذكر فروعاً مفيدة تتعلق بالصحابة تتميماً للفائدة ، أشار العراقيُّ في «ألفيته» في أصول الحديث إلى جميعها جملة ، وأتيت بما علقه عليه شارحه الشيخ زكريا ، وربما زدْت زيادة على ذلك فأقول:

فيما تُعْرَفُ به الصُّحبة

فروع:

الفرع الأول: فيما تعرف به الصحبة: وهي تعرف بأربعة أمور:

الأول: باشتهار الصحابي بها اشتهاراً قاصراً ، ويسمى استفاضة على رأي ، وذلك كَعُكّاشة بن مِحْصن ، وضِمام بن ثَعْلبة.

الثاني: تواترها ، وذلك كالخلفاء الأربعة.

الثالث: إخبار صحابي آخر بها صريحاً ، كقوله: فلان له صحبة؛ أو ضمناً كقوله: كنت أنا وفلان عند النبي ،ﷺ ، إذا عُلم إسلام فلان في تلك الحالة ، وكذلك تعرف بقول أحد ثقات التابعين.

الرابع: دعوى الصحابي لها بنفسه ، وهو عدلٌ ، لأن مقامه يمنعه من الكذب ، ولكن لا بد أن يكون ما ادعاه مما يقتضيه الظاهر؛ أما لو ادعاه بعد مضي مئة سنة من حين وفاته ، ﷺ ، فإنه لا يقبل ، وإن ثبتت عدالته قبل ذلك ، للخبر الصحيح المار: «أرأَيْتُكُمْ لَيْلَتَكُم هذه فإنه على رأس مئة سنة منها ، لا يبقى على وجه الأرض ممن هو اليوم عليها أحدٌ». قاله قبل وفاته بشهر ، واشترط الأصوليُّون في قَبول ذلك منه معرفة معاصرته للنبي ، ﷺ. وقيل: لا يقبل قَوْله بذلك لكونه متهماً بدعوى رتبة يثبتها لنفسه ، وإلى هذا الفرع أشار العراقي مبتدئاً بتعريف الصحابي؛ فقال:

رَائـي الـنبيِّ مُسْلِمـاً ذُو صُحبـة   وَقيْلَ إنْ طالَـتْ وَلـمْ يُثـبَّـتِ
وَقـيْلَ مَنْ أقـامَ عـامـاً أو غَـزَا معـهُ وَذَا لابْــنِ الـمُـسيِّب عَزا.
وَتُـعْـرَفُ الـصُّحْبـةُ باشْتِـهـارٍ أَوْ تَواتُــر أوْ قَوْلِ صَاحـبٍ وَلَــو
قَدِ ادَّعاها وَهْوَ عَدْلٌ قُبلا

في عدالة الصحابة

الفرع الثاني: هو أن الصحابة كلهم عدول باتفاق أهل السنة على ما حكاه ابن عبد البر ، وإن دخلوا في الفتنة نظراً إلى ما اشتهر عنهم من المآثر الجميلة ، ولقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وقوله تعالى: ﴿وكَذلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً..﴾ [البقرة: ١٤٣] إلى آخر الآية. ولقوله عليه الصلاة والسلام: «لا تَسُبُّوا أصحابي . . .» إلى آخر الحديث السابق ، ولقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ أيضاً: «الله ، الله في أصحابي» إلى آخر الحديث السابق قريباً.

وقيل: لا يُحْكَمُ بعدالة من دخل في فتنة من حين مقتل عثمان ، رضي الله تعالى عنه ، كالجمل ، وصِفِّين ، إلا بعد البحث عنها ، لأن أحد الفريقين مخطىء.

وقيل: القول بالعدالة مختص بما اشتهر منهم ، ومَنْ عداهم كسائر الناس ـ والصحيح الأول تحسيناً للظن بهم ، وحملاً لمن دَخَلَ في الفتنة على الاجتهاد ، ولا التفات إلى ما يذكره أهل السير ، فإن أكثره لا يَصِحُّ ، وما صح ، فله تأويل صحيح . وما أحسن قول عمر بن عبدالعزيز ، رحمه الله تعالى: تلك دماء طهر الله منها سيوفنا ، فلا نخضب بها ألسنتنا. قال ابن الأنباري: وليس المراد بعدالتهم ثبوت عصمتهم ، واستحالة المعصية منهم ، بل قبول روايتهم من غير بحث عن عدالتهم ، وطلب تزكيتهم ـ وإلى هذا الفرع أشار العراقي بعد الأبيات السابقة بقوله:

. . . .   وَهُمْ عُدُولٌ قيلَ لَا مَنْ دَخَلا
فــي فتنةٍ. . . . .

في المكثرين رواية وفتوى

الفرع الثالث: في المكثرين منهم روايةً ، وفيمن هو أكثر فتوى منهم ، والمكثر من زاد حديثه على ألف ، وهم ستة على الصحيح .

وأكثرهم رواية أبو هُريرة ، لقوله كما في «الصحيحين»: قلت: يا رسول الله! إني أسمع منك حديثاً كثيراً أنساه ، قال: «ابسُطْ رداءَكَ» فبسطته ، فغرف بيده؛ ثم قال: «ضُمَّهُ»؛ فضممته ، فما نسيت شيئاً بعد ذلك .

وأكثرهم فتوى عبدالله بن عباس ، لأن النبي ﷺ دعا له؛ فقال: «اللّهُمَّ عَلِّمْهُ الكتابَ» وفي لفظ: «اللّهُمَّ فَقِّهْهُ في الدين وعَلِّمْه التأويل» وفي آخر: «اللهُمَّ علمه الحكمة وتأويل الكتاب» .

والمكثرون منهم فتوى غير ابن عباس ستة: عمر ، وعلي ، وابن مسعود ، وابن عمر ، وزيد بن ثابت ، وعائشة ، رضي الله تعالى عن الجميع .

فقد روى أبو هريرة الذي هو أكثرهم رواية خمسة آلاف حديث وثلاث مئة وأربعة وسبعين حديثاً ، ثم يليه ابن عمر ، لأنه روى ألفين وست مئة وثلاثين ، ثم أنس ، لأنه روى ألفين ومئتين وستة وثمانين ، ثم عائشة ، لأنها روت ألفين ومئتين وعشراً ، ثم ابن عباس ، لأنه روى ألفاً وست مئة وستين ، ثم جابر ، لأنه روى ألفاً وخمس مئة وأربعين. وزاد العراقي سابعاً ، وهو أبو سعيد الخدري ، لأنه روى ألفاً ومئة وسبعين وإلى هذا الفرع ، أشار العراقي ؛ فقال بعد قوله السابق:

فـي فِتْنَـةٍ والمُكْثِـرونَ سِتَّـهْ ... أَنَـسٌ ابـنُ عُمَـرَ الصِّدِّيقَـهْ
البحـرُ جابِـرٌ ، أبـو هُـرَيْـرَهْ ... أَكْثَـرُهُم وَالبَحْـرُ في الحَقيقَـهْ
أَكْثَرُ فتوى. . . . . .

فِيْمَنْ يقالُ لَهُمُ : العبادلة

الفرع الرابع : فيمن يقال لهم : العبادلة ؛ فإذا اجتمعوا على شيء ، قيل : هذا قول العبادلة ، وهم : عبدالله بن عباس ، وابن عمر ، وابن الزبير ، وابن عمرو بن العاص . وجعل بعضهم مكان ابنِ عمرو بن العاص ابنَ مسعود ، وهو غير صحيح ، وبعضهم زاد عليهم ، وبعضهم نقص منهم ، وإلى هذا أشار العراقي ؛ فقال بعد قوله :

أَكْثَرُ فَتْوى وهْوَ وابْنُ عُمرَا وابنُ الزُّبيْرِ وابنُ عَمْرٍو قدْ جرى
علَيهِـــمُ بالشُّهـــرَةِ العَبادِلَـــهْ لَيْسَ ابنَ مَسْعُودٍ ولاَ مَنْ شاكَلَهْ

فيمن لهم أتباع في الفقه

الفرع الخامس : فيمن كان من الصحابة لهم أتباع ، وأصحاب يقولون برأيه ، وهم ثلاثة : ابن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وابن عباس . وإلى هذا أشار العراقي بعد قوله السابق : «ولا مَنْ شاكَلَهْ» . فقال :

وهْوَ وزَيْدٌ وابنُ عَبّاسٍ لهُمْ في الفِقْهِ أَتْباعٌ يَرَوْنَ قَوْلَهُمْ

فيمن انتهى إليهم العلمُ من الصَّحابةِ

الفرع السادس : فيمن انتهى إليهم العلم من أكابر الصحابة ، وهم ستة ؛ قال مَسْروق بن الأَجْدع : انتهى علم الصحابة إلى ستة منهم ، وهم عمر ، وعلي ، وابن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وأُبيُّ بن كعب ، وأبو الدَّرْداء ، وبعضهم نقل عنه أبا موسى الأشعريَّ مكان أبي الدرداء ، والناقل لذلك عنه الشَّعْبِيُّ ، ثم قال : إن علم الستة انتهى لابن مسعود ، وعلي .

ولا يَقْدَحُ في انتهاء علم الستة إليهما تأخر وفاة كل من زيد ، وأبي موسى عنهما ، إذ لامانع من انتهاء علم شخص إلى آخر مع بقاء الأول ، كما أفاده العراقي ، ولأن علياً وابن مسعود كانا مع مسروق بالكوفة ؛ فانتهى العلم بها إليهما ، بمعنى أن عمدة أهل الكوفة في معرفة علم الصحابة

عليهما ، وإلى هذا أشار العراقي ، بعد قوله السابق: «يَرَوْن قَوْلَهم» - فقال:

وقالَ مسْروقُ انْتَهى العِلْمُ إلى سِتَّةِ أَصْحابِ كِبارٍ نُبَلا
زَيْدٍ أبي الدَّرْدَاءِ مَعْ أُبَيِّ عُمَرَ عَبْدِ اللهِ مَعْ عَلِيِّ
ثُمَّ انْتَهى لِذَيْنِ وَالبَعْضُ جَعَلْ الأَشْعَرِيَّ عَنْ أبي الدَّرْدا بَدَلْ

في عدد الصحابة وطِباقِهم

الفرع السابع: في عدد الصحابة وطِباقِهم ، وقد مَرَّ مستوفى غاية الاستيفاء ، وإليه أشار العراقي بعد قوله السابق: «عن أبي الدَّرْدا بَدَلْ» فقال:

وَالعَدُّ لا يَحْصُرُهُم فَقَدْ ظَهَر سَبْعونَ أَلْفاً بِتَبُوكَ وَحَضَرْ
الحَجَّ أَرْبَعُونَ أَلْفاً وقُبِضْ عَنْ ذَيْنِ مَعْ أَرْبَعِ آلافٍ تَنِضّ
وَهُمْ طِباقٌ إنْ يُرِدْ تَعْديدُ قيلَ اثْنَتا عَشْرَةَ أوْ تَزِيدُ

في ترتيبهم في الفضل

الفرع الثامن: في ترتيب الصحابة في الفضل؛ وفي السابقين من هم؟

الأول: قد مر الكلام فيه ، في أن أفضلهم الخلفاء الأربعة على ترتيب الخلافة ، وقد مر عن مالك أنه توقف في التفضيل بين عثمان وعلي ، رضي الله تعالى عنهما ، لكن حكى عنه القاضي عِياض أنه رجع عن الوقف إلى تفضيل عثمان ، وقال القرطبي: هو الأصح ، والمشهور عنه ، كما أنه هو المشهور عند الشافعي ، وأحمد ، والثَّوري وكافة أئمة الحديث ، والفقه ، وكثير من المتكلمين ، وإليه ذهب أبو الحسن الأشْعَرِيّ ، والقاضي أبو بكر الباقِلَّانِيّ ، لكنهما اختلفا في التفضيل بين الصحابة ، هل هو قطعي الدَّليل؟ أم ظَنِّيُّه؟ فالذي مال إليه الأشعري الأول ، والباقِلَّانِيُّ الثاني . وتقدم الكلام عن كون المسألة اجتهادية أم لا؟

واختلافهما راجع إلى ذلك. فالستة الباقون من العشرة المشهود لهم بالجنة ، وقد مروا ، فيليهم في الفضل أهل بدر ، ثم أهل أحد ، ثم أهل الحديبية وهم أهل بيعة الرضوان ، الذين نزل فيهم : ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**﴾ [الفتح : ١٨]. إلخ الآية. وكانوا ألفاً وأربع مئة رجل .

وأما السابقون المشهود لهم بالفضل في القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿**والسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهاجِرينَ وَالأَنْصار**﴾ [التوبة: ١٠٠] وبقوله تعالى ﴿**السَّابِقونَ السَّابِقونَ . .**﴾ إلخ ، وبقوله تعالى : ﴿**لا يَسْتوي مِنكُم مَنْ أَنفقَ مِنْ قَبل الفَتْحِ وقاتَل**﴾ [الحديد: ١٠] الآية فقد قال الشعبي وغيره: هم الذين شهدوا بيعة الرضوان. وقال محمد بن كَعْب القُرَظيُّ وغيره: هم أهل بدر. وقال أبو موسى الأَشْعَريّ وغيره: هم أهل القِبلَتَيْن الذين صلَّوْا إليهما مع رسول الله ، ﷺ ، وإلى هذا أشار العراقي بعد قوله السابق: «. . . أو تزيد» فقال:

والأَفـضَـلُ الـصِّـديقُ ثُم عُمَـرُ ... وبَـعْـدَهُ عثْـمـانُ وهْـوَ الأَكـثَـرُ
أو فَعَـلِيٌّ قَبْـلهُ خُلْفٌ حُكِـي ... قُلتُ وقَـوْلُ الـوَقْفِ جا عَنْ مالِـك
فَالـسِّـتـةُ البـاقـونَ فالـبَـدْرِيَّـةُ ... فأُحُـدٌ فالـبَـيْعـةُ الـمَـرضِـيَّـةُ
قـالَ وفَـضْـلُ الـسَّـابقـينَ قـد وَرَدْ ... فَقِيل هُـمْ وقِـيْـلَ بَدْرِيٌّ وقَـدْ
قيـلَ بَـلْ أَهْـلُ الـقِـبْـلَتَـيْـنِ . . ..

في أول من أسلم من الصحابة

الفرع التاسع : فيمن هو أول الصحابة إسلاماً.

فقال ابن عباس وغيره: أولهم إسلاماً أبو بكر الصديق لقوله، رضي الله تعالى عنه ، كما في الترمذي : «كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمْ» ، ولقوله ، ﷺ ، لِعمرو بن عَبسة لما سأله ؛ من معك على هذا الأمر ؟ قال: «حُرٌّ وعَبْد» . يعني أبا بكر وبلالاً . رواه مسلم .

وقال جابر وغيره: أولهم إسلاماً علي ابن أبي طالب، لما روي مرفوعاً عن سَلْمان الفارسي، أنه قال: قال ﷺ: «أول هذه الأمةِ وروداً على الحوض أولُهم إسلاماً علي بن أبي طالب». ولقوله، رضي الله تعالى عنه: «صَلَّيْتُ مَع النبيِّ، ﷺ، لا يُصَلِّي معه غيري إلا خديجة». وقال على المنبر: «لَقَدْ صَلَّيْتُ قبلَ أن تُصليَ النّاس سبعاً».

قلت: لعل هذا لم يصح عنه، رضي الله تعالى عنه، لأن الصلاة إنما نزلت ليلة الإسراء، ومعلوم أن أبا بكر إذ ذاك مسلم؛ وقد قيل: إنه سمي الصديق لتصديقه بالإسراء؛ فكيف يصدر هذا من علي، رضي الله تعالى عنه؟! وادعى الحاكم الإجماع على أن علياً هو أول من أسلم، ودعواه مردودة غير مقبولة، قال مَعْمَر عن الزُّهري: أولهم إسلاماً زيد بن حارثة. وقال قَتادة وأبو إسحاق: أول الناس إسلاماً خديجة، أم المؤمنين. وادّعى الثَّعْلَبيُّ الاتفاق على ذلك؛ فقال: الخلاف إنما هو فيمن أسلم بعدها. قال النووي: هذا القول هو الصواب عند جماعة من المحققين. وقال ابن إسحاق: أول من آمن خديجة، ثم علي وهو ابن عشر، ثم زيد، ثم أبو بكر فأظهر إسلامه، ودعا إلى الله سبحانه وتعالى؛ فأسلم بدعائه عثمان، والزبير، وعبدالرحمن بن عَوْف، وسعد بن أبي وَقّاص، وطَلْحة بن عبيدالله، فكان هؤلاء النفر الثمانية أسبق الناس إسلاماً.

قلت: على هذا القول ذهب الشِّنْقِيْطِيُّ في نظمه حين قال:

أولُ الناس بالنَّبي اقْتِداءً ... أُمُّ أبنائِهِ الكرامِ الجُدودِ
فعليٌّ ثُمَّ ابنُ حارثةَ الكَلْـ ... بيُّ زيدٌ مولى النَّبيِّ المجيدِ
ثُمَّ إذ آمَن الصِّديقُ دَعا النـاسَ ... فجاءَت عِصابَةٌ كالفَريدِ
وهْي عثمانُ والزُّبَيرُ وابنُ عَوْفٍ ... وطَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ

وقيل: أولهم إسلاماً بلال، لخبر مسلم السابق. قلت: ليس في خبر مسلم دلالة على أسبَقيَّة بلال في الإسلام لأبي بكر؛ فإن غاية ما في الحديث أنهما معه، عليه الصلاة والسلام، على الإسلام، ولم يبين

أسبَقِيَّةً لأحدهما على الآخر.

قال ابن الصَّلاح: للجمع بين الأقوال، والأورع أن يقال: أول من أسلم من الرجال الأحرار، أبو بكر، ومن الصبيان علي، ومن النساء خديجة، ومن الموالي زيد، ومن العبيد بلال. وحكي هذا عن أبي حنيفة، رضي الله تعالى عنه. وفي المسألة أقوال أُخر.

وإلى هذا الفرع أشار العراقي بعد قوله السابق: «قيل بل أهلُ القبلتين...»، فقال:

..... واخْتَلَفْ أَيُّهُمُ أَسْلَمَ قَبْلَ مَنْ سَلَفْ
قِيْلَ أَبو بَكْرٍ وقيلَ بلْ عَلِي ومُدَّعي إِجْماعِهِ لَم يُقْبَل
وقِيلَ زَيْدٌ وادَّعى وِفَاقاً بَعْضٌ على خَدِيجَةَ اتِّفاقا

في آخرهم موتاً

الفرع العاشر: فيمن مات منهم آخراً مطلقاً، أو في إحدى النواحي.

أما آخرهم موتاً على الإطلاق؛ فقد مر أنه أبو الطفيل عامر بن وَاثلةَ اللَّيْثِي، مات عام مئة على الصحيح، للحديث السابق وقد روي عنه كما في مسلم، أنه قال: «رأيتُ رسول الله ﷺ وما على وجهِ الأرضِ رجلٌ رآه غيري». وقيل: بالكوفة.

وآخرهم موتاً بالمدينة النبوية على ما قال ابن الصَّلاحِ: السائبُ بن يزيد، أو سَهْل بن سَعْد الساعِديُّ، أو جابر بن عبدالله، وقيل: إن جابراً مات بمكة، والجمهور على الأول.

وقد تأخر عن الثلاثة موتاً بالمدينة محمودُ بن الرَّبيع، مات سنة تسع وتسعين بتقديم التاء فيهما، ومحمود بن لَبيد الأشْهَلِيّ، مات سنة خمس أو ست وتسعين.

وآخر من مات بمكة عبدالله بن عُمر، على أن أبا الطفيل لم يمت

فيها. وقد مات السائب سنة ثمانين أو اثنتين أو ست أو ثمان وثمانين أو إحدى وتسعين أقوال. ومات سهل سنة ثمان وثمانين ، وقيل: إحدى وتسعين ، ومات جابر سنة اثنتين أو ثلاث أو أربع أو سبع أو ثمان أو تسع وسبعين والمشهور خامسها. ومات ابن عمر سنة اثنتين أو ثلاث أو أربع وسبعين والمشهور ثانيها.

وآخر من مات بالبَصرة -بفتح الموحدة أشهر من كسرها وضمها- أنس ابن مالك؛ مات سنة تسعين أو إحدى أو اثنتين أو ثلاث وتسعين. ورجح النَّوويُّ وغيره آخرها.

وآخر من مات بالكوفة عبدالله بن أبي أوفى الأَسْلَمِيّ؛ مات سنة ست أو سبع أو ثمان وثمانين.

وآخرهم موتاً بالشام عبدالله بن بُسْر ـ بضم الموحدة ثم سين مهملة ـ المازنيّ. وقيل: أبو أمامة ، والصحيح الأول ، مات الأول سنة ثمان وثمانين على المشهور أو ست وتسعين أو مئة. ومات الثاني سنة إحدى أو ست وثمانين. وقيل: إن ابن بسر آخر من مات بحمص. وقيل: آخرهم بدمشق واثِلَةُ بن الأَسْقَع؛ مات سنة ثلاث أو خمس أو ست وثمانين ، وقيل: مات بالقدس ، وقيل: بحمص.

وآخرهم موتاً بالقدس أبو أُبَيّ ـ بالتصغير ـ عبدالله ، ويقال له: ابن أم حرام ، واختلف في اسم أبيه؛ فقيل: عمر بن قيس وقيل: أُبيّ ، وقيل: كَعْب: إنه مات بدمشق. والقدس من مدن فِلَسْطين ـ بكسر الفاء وفتح اللام وسكون المهملة ـ وهي ناحية كبيرة وراء الأردن من الشام ، فيها عدة مدن كالقُدس والرَّمْلَة وعَسْقَلان ، وآخر من مات بالجزيرة التي بين دِجْلة والفُرات ، العُرْسُ -بضم العين- ابن عَميرة ـ بفتحها ـ الكِنْدِيُّ.

وآخرهم موتاً بمصر عبدالله بن جَزْء وهو الزُّبَيْدِيّ ـ بالتصغير ـ مات سنة خمس أو ست أو سبع أو ثمان أو تسع وثمانين والمشهور ثانيها! وقيل: إنه

مات باليمامة ، وقيل: مات بِسَفْطِ القُدور ، وتعرف اليوم بِسَفْطِ أبي تراب بالغَرْبيَّةِ.

وآخرهم موتاً باليمامة الهِرْماس ـ بكسر الهاء ـ ابن زياد الباهِلِيّ. وقد روي عن عِكْرمة بن عمار أنه لقيه سنة اثنتين ومئة ، فموته إما فيها أو فيما بعدها. فإن صَحَّ ذلك أشكل بما مر من أن آخرهم موتاً مطلقاً أبو الطُّفَيْل ، وأنه مات سنة مئة على الصحيح.

وآخرهم موتاً ببلاد المغرب رُوَيْفع بن ثابت الأنصاري ، مات ببرقة ، وقيل: بإفريقية ، وقيل مات بالشام.

وآخرهم موتاً بالبادية سَلَمَةُ بن الأَكْوَع ، مات سنة أربع وسبعين ، وقيل: سنة أربع وستين وقيل: مات بالمدينة المكرمة ، وهو الصحيح.

وآخرهم موتاً بخراسان بُرَيْدة بن الحُصَيْب.

وآخرهم موتاً بالرُّخَّج ـ براء مضمومة ثم خاء مشددة مفتوحة ، وقيل: ساكنة ثم جيم ـ وهي من أعمال سجستان ، العَداء بن خالد بن هوذة.

وبأصبهان النَّابِغَةُ الجَعْدي.

وبالطائف عبدالله بن عباس ، مات فيه سنة ثمان وستين ، وقيل: سنة تسع ، وقيل: سنة سبعين ، رضي الله عنهم أجمعين.

هذا آخر ما لخصته من أحوال الصحابة ، ولعلك لا تجده مجموعاً ملخصاً جامعاً بين النثر والنظم في غير هذا الكتاب ، فادع الله تعالى لملخصه بالعافية والغفران والموت بالمدينة المنورة على الإيمان ، وتوسل في دعائك بأفضل ولد عدنان ، فما صلح أمر ليس واسطة فيه للكريم الحنان المنان ، ثم أَشْرَعُ في تبين حقيقة التابعين ومالهم من الأحوال والطبقات.

فأقول: التابعي ، ويقال: التابع ـ والأول أكثر استعمالاً ـ هو من لقي الصحابي ولو كان أعمى ، ولو كان غير مميز ، واحداً كان الصحابي أو أكثر ، سمع منه اللاقي أم لا . وحده الخطيب: بأنه من صحب الصحابي ولا يكفي اللُّقِيُّ. والأول أصح ، وممن صرح بتصحيحه ابن الصَّلاح والنَّوويُّ ، قال النَّوَويُّ: الخلاف فيه كالخلاف الجاري في الصحابي ، والاكتفاء هنا بمجرد اللقاء أولى نظراً إلى مقتضى اللفظين. ورجح القَسْطَلّاني في «المواهب اللدنية» الثاني ، ونصه في خصائص النبي ﷺ: ومنها أنه تثبت الصحبة لمن اجتمع به ﷺ لحظة بخلاف التابعي مع الصحابي ، فلا تثبت إلا بطول الاجتماع معه على الصحيح عند أهل الأصول ، والفرق عِظَمُ مَنْصِبِ النبوة ونورها بمجرد ما يقع بصره على الأعرابي الجِلْفِ ينطق بالحكمة.

وهو فرق واضح في غاية الحسن ، فينبغي اعتماده.

واختلف العلماء في طبقاتهم فعند مسلم في «طبقاته» أنها ثلاثة ، وكذلك عند ابن سعد في «طبقاته» ، وربما بلغ بها أربعاً ، وكونها أربع طبقات هو الذي صرح به الحافظ ابن حَجَر في «تقريب التهذيب» كما يأتي قريباً ، إن شاء الله تعالى. وقال الحاكم: إنهم خمسَ عشرة طبقة. آخرهم من لقي أنس ابن مالك من أهل البصرة ، ومن لقي عبدالله بن أبي أَوْفَى من أهل الكوفة ، ومن لقي السائب بن يزيد من أهل المدينة ، وأولهم من لقي العشرة المبشرين بالجنة ، وسمع منهم ، ولم يقع هذا الوصف إلا لقيس بن أبي حازِم ، كما نص عليه ابن حِبّان ، وعبد الرحمن بن يوسف ابن خِراش. وقال أبو داود وغيره: إنه لم يسمع من عبدالرحمن بن عَوْف ، وعد الحاكم سعيد بن المسيِّب مع قيس بن أبي حازِم في هذا الوصف ، وهو غلط لأن سعيداً إنما ولد في خلافة عمر بن الخطاب ، فكيف يسمع من أبي بكر ، مع أنه لم يسمع من بعض بقيتهم ، بل قيل: إنه لم يسمع من أحد منهم إلا سعد بن أبي وقاص. هكذا عزا العراقي في «ألفيته»

للحاكم أنهم خمس عشرة طبقة ، فقال مبيناً لتعريف التابعي وطبقاته ، فقال:

وَالتَّابِعُ اللَّاقِي لِمَنْ قَدْ صحِبا ... وَلِلْخَطيبِ حَدُّهُ أَنْ يَصْحَبا
وَهُمْ طِباقٌ قيلَ خَمْسَ عَشْرة ... أَوَّلُهُمْ رُواةُ كُلِّ العَشَرَة
وَقَيْسٌ الفَرْدُ بهذا الوَصْفِ ... وَقِيلَ لَمْ يَسْمَعْ مِن ابنِ عَوْفِ
وَقَوْلُ مَنْ عَدَّ سَعيداً فَغَلَط ... بَلْ قيلَ لَمْ يَسْمَعْ سوى سَعْدٍ فَقَطْ

ولم أر من فَصَّلَ الطبقات الخمس عشرة المعزوة للحاكم.

والذي ذكره ابن حَجَر العَسْقَلاني في «تقريب التهذيب» هو أن عدد طبقات المحدثين جميعاً من عهد الصحابة اثنتا عشرة طبقة. ونصه:

وأما الطبقات:

فالأولى: الصحابة على اختلاف مراتبهم ، وتمييز من ليس له منهم إلا مجرد الرؤية عن غيره.

الثانية: طبقة كبار التابعين كابن المُسَيِّب ، فإذا كان مُخَضْرَماً صرحت بذلك ، ويأتي ، إن شاء الله تعالى ، إيضاح المخضرم .

الثالثة: الطبقة الوسطى من التابعين كالحسن وابن سيرين.

الرابعة: طبقة تليها جلُّ روايتهم عن كبار التابعين كالزُّهري وقتادة .

الخامسة: الطبقة الصغرى ، منهم الذين رأوا الواحد والاثنين ، ولم يثبت لبعضهم السماع من أحد الصحابة كالأعمش .

السادسة: طبقة عاصروا الخامسة ، لكن لم يثبت لهم لقاء أحد من الصحابة كابن جريج .

السابعة: كبار أتباع التابعين ، كمالك والثوري .

الثامنة: الطبقة الوسطى منهم ، كابن عيينة وابن عُلَيَّة .

التاسعة: الطبقة الصغرى من أتباع التابعين ، كيزيد بن هارون ، والشافعي ، وأبي داود الطَّيَالِسيّ ، وعبد الرزاق .

العاشرة: كبار الآخذين لمس تبع الأتباع، ممن لم يلق التابعين، كأحمد بن حَنْبل .

الحادية عشرة: الطبقة الوسطى من ذلك كالذُّهْلي والبُخاري .

الثانية عشرة: صغار الآخذين عن تبع الأتباع كالترمذي ، وألحقت بها باقي شيوخ الأئمة الستة الذين تأخرت وفاتهم قليلاً ، كبعض شيوخ النسائي .

وذكرت وفاة من عرفت سنة وفاته منهم ؛ فإن كان من الأولى والثانية فهم قبل المئة ، وإن كان من الثالثة إلى آخر الثامنة فهم بعد المئة ، وإن كان من التاسعة إلى آخر الطبقات فهم بعد المئتين ؛ ومن ندر عن ذلك بَيَّنْتُهُ .

هذا حاصل ما ذكره من الطبقات ، وهو مستوفى غاية الاستيفاء . فانظر الطبقات الخمس عشرة التي ذكرها الحاكم في التابعين وحدهم كيف تصورها . هذا التقسيم لم يذكر لهم إلا أربع طبقات ، وذكر طبقة معاصرة للرابعة من طبقات التابعين ، لكن لم يحصل لها لقاء لأحد من الصحابة .

أفضل التابعين

وقد اختلف العلماء في أفضل التابعين ، فعند الإمام أحمد وابن المَدينـيِّ وأهل المدينة أن أفضلهم سَعيد بن المُسَيِّب ، ورُوي عن أحمد أيضاً أن أفضلهم قَيْس بن أبي حازِم ، وقيل: أفضلهم أبو عثمان النَّهْدِيّ ، ومَسْروق ابن الأَجْدع ، وأفضلهم عند أهل البصرة الحسن البصري ، وعند أهل الكوفة أُوَيْسٌ القَرَنـيُّ . وهذا التفضيل حكاه ابن الصَّلاح عن أبي عبد الله بن خُفَيْف واستحسنه . لكن قال العراقي : الصحيح ، والصواب ما

ذهب إليه أهل الكوفة ، لحديث مسلم ، عن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ خيْـر التابعين رَجُلٌ يُقال له: أُوَيْسٌ وبه بياض ، فمروهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لكم» قال: فهذا الحديث قاطع النزاع. وأما تفضيل أحمد لابن المسيِّب وغيره فلعله لم يبلغه الحديث ، أو لم يصح عنده ، أو أراد بالأفضلية الأفضلية في العلم لا الخيرية عند الله تعالى. هذا حكم ذكورهم .

وأما نساؤهم فعند إياس بن معاوية أفضلهن حَفْصة بنت سِيرين وحدها ، وعند أبي بكر بن داود حَفْصَة وعَمْرَة بنت عبدالرحمن ، وتليهما أم الدَّرْداء الصغرى ، واسمها هُجيمة ويقال: جُهيمة لا الكبرى ، فتلك صحابية واسمها خيرة. وإلى هذا أشار العراقي بعد قوله السابق «لم يسمع سوى سعد فقط» فقال:

لكنَّـهُ الأفضـلُ عـنْـدَ أحمدا ... وعَنهُ قَـيْـسٌ وسِـواهُ ورَدا
وفَضَّلَ الحسـنَ أهلُ البَـصرَه ... والقَرني أوَيْسـاً أهـلُ الكُوفَة
وفـي نِسـاءِ التّـابِعيـنَ الأبْـدا ... حَـفْـصَـةُ مَـع عَـمْـرَةَ أمّ الدَّرْدا

الفقهاء السبعة

من كبار التابعين فقهاء المدينة السبعة الذين كانوا يُنْتَهَى إلى قولهم وإفتائهم ، فلا يحكي قاض في مسألة حتى يتفقوا على الحكم فيها ، وهم «سَعيدُ بن المُسيِّب ، وعُروة بن الزُّبير ، والقاسم بن محمد بن أبي بكر ، وخارجةُ بن ثابت الأنصاري ، وسليمانُ بن يسار الهلاليُّ ، وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود». فهذه ستة متفق عليها. واختلف في السابع فقيل: أبو بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام ، وقيل: أبو سلمة بن عبدالرحمن بن عَوْف ، وقيل: سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب. وبلغ بهم يحيى بن سعيد اثني عشر فنقص وزاد؛ فقال: فقهاء المدينة اثنا عشر؛ سَعيد بن المُسيِّب ، وأبو سَلَمة ، والقاسم بن محمد ، وسالم ، وحمزة ، وزيد ، وعبيد الله ، وبلال بن عبدالله بن عمر ، وأبانُ بن عثمان بن عفان ،

وقَبيصَةُ بن ذُؤَيْب ، وخارجَةُ وإسماعيل ابنا زيد بن ثابت. وإلى السبعة الأولين أشار العراقي بعد قوله السابق: «أم الدردا» ، فقال:

وفي الكِبارِ الفُقَهاءُ السَّبعَةُ خارجَةُ القاسِمُ ثُمَّ عُرْوَةُ.
ثُمَّ سلَيْمَانُ عُبَيْدُ اللهِ سعيدُ والسَّابِعُ ذو اشتِباه.
أما أبُو سَلَمَةٍ أَو سالِمُ أَو فأَبو بَكْرٍ خِلَافٌ قائِمُ

المُخَضْرَمونَ

ثم اعلم أن من التابعين مَنْ يُسَمَّوْنَ المخضرمين كما مر. والصحيحُ أن المخضرم هو الذي أدرك الجاهليةَ والإسلامَ؛ ولم يُرَ في خبر قَطُّ أنهم اجتمعوا بالنبي ﷺ ولا رأوه ، سواء أسلموا في حياته أو بعد موته ، وليسوا أصحابه باتفاق أهل الحديث ، وفتح الراء فيهم أشهد من كسرها ، وما حكاه الحاكم عن بعض مشايخه في اشتقاقه من أن أهل الجاهلية ممن أسلم ، ولم يهاجر ، كانوا يُخضرِمُون آذان الإبل ، أي يقطعونها لتكونَ علامةً لإسلامهم إن أُغير عليهم أو حُوربوا؛ مُحتَمَلٌ لهما ، فالفتح من أجل أنهم خُضْرموا ، أي قُطِعوا عن نُظَرائِهم بما ذُكر ، فهم مَفْعولون؛ والكسر من أجل أنهم خَضْرموا آذان الإبل فهم فاعلون.

وقال صاحب «المحكم»: رجلٌ مخضرَمٌ إذا كان نِصْفُ عُمُرِه في الجاهلية ونصفُ عمره في الإسلام. ورجل مُخضرَمٌ أدرك الجاهلية والإسلام. وقال ابن حبان: الرَّجُلُ إذا كان له في الكفر ستون سنةً ، وفي الإسلام ستون يُدعى مخضرَماً.

ومقتضى عدم اشتراطهما نفي الصحبة أن حَكيم بن حِزام وشبهه مخضرمٌ ، وليس كذلك في الاصطلاح ، لأن المخضرم هو المتردد بين الطبقتين لا يُدْرَى من أيتهما هو ، وهذا هو مدلول الخَضْرَمَةِ لغة. فقد قال صاحب «المحكم»: رجل مخضرَمٌ ، ناقص الحسب ، وقيل: الدَّعِيُّ ، وقيل: مَنْ لا يُعْرَفُ أبواه ، وقيل: من أبوه أبيض وهو أسود ، وقيل: من ولدته السَّراري. وقال هو أيضاً والجَوْهَرِيُّ: لحم مخضرم؛ لا يدري أمن

ذكر هو أو أنثى؟ فكذلك المخضرمون متردِّدون بين الصحابة والتابعين لعدم اللُّقِيِّ ، وهم كثيرون ، منهم سُوَيْد بن غَفَلَة - بالتحريك - وأبو عمرو بن جابر ، وعُمر بن مَيْمون الأَوْدِيُّ ، والأسود بن يزيد النَّخَعِيّ ، والأسود بن هلال المُحارِبيّ وقد بلغ بهم مُسلم بن الحجاج عشرين ، ومُغُلْطاي مئة ، وإلى هذا أشار العراقي بعد قوله السابق: «خلاف قائم» فقال:

والـمُـدْرِكـونَ جاهِـلِيّـةً فسَـمْ مخَـضْـرمـينَ كَسُـوَيدٍ في أُمَـمْ

الغلط في عَدِّ مَنْ ليس من طبقة فيها

ومما يستحق الذكر هنا والتنبيه عليه ، ما قد يقع لأهل الطباق من عد التابعي في تابعي التابعين ، وعكس ذلك ، وهو عد بعض تابع التابعين في التابعين ، وكذلك عدّ بعضِهم بعضَ الصحابة في التابعين. وعكس ذلك ، وهو عد بعض التابعين في الصحابة. فهذه أربعة أنواع تقع من أهل الطِّباق ، وهي فاسدة قطعاً.

الأول: الذي هو عد بعض التابعين في تابعيهم ، مثل أبي الزِّناد عبدالله ابن ذَكْوان ، وهشام بن عُروة ، وموسى بن عُقبة؛ فإنهم تابعيون مع أنهم معدودون عند أكثر الناس في أتباع التابعين.

والثاني: الذي هو عد بعض تابعي التابعين في التابعين ، مثل إبراهيم ابن سُوَيْد النَّخَعِي ، وسعيد ، وواصل ابني عبدالرحيم البصري.

والثالث: وهو عد بعض الصحابة في التابعين يقع لأحد أمرين: إما لأجل الغلط لا غير؛ وإما لكون الصحابي من صغار الصحابة ، يقارب التابعين في أن روايته أو جُلّها عن الصحابة. فالأول: كالنعمان وسويد ابني مُقَرِّنٍ المُزَني؛ فإنهما صحابيان معروفان من جملة المهاجرين ، مع أن الحاكم عدهما غلطاً في الإخوة من التابعين. والثاني: مثل يوسف بن عبدالله بن سلام ، ومحمود بن لَبيد؛ فقد عدهما مسلم وابن سعد في التابعين.

والرابع: الذي هو عدّ بعض التابعين في الصحابة، كعبد الرحمن بن غَنْم الأشعري؛ فقد عده محمد بن الربيع الجيزي في الصحابة مع أنه تابعي، وإلى هذا أشار العراقي، فقال:

وَقَدْ يُعَدُّ في الطِّباقِ التَّابِعُ في تَابِعَيْهِم إذْ يَكُونُ الشَّائِعُ
الحَمْلَ عَنهمْ كَأَبي الزِّنَادِ وَالعَكْسُ جاءَ وَهْوَ ذُو فَسَادِ
وَقَدْ يُعَدُّ تابِعِيّاً صَاحِبُ كَابْنَيْ مُقَرِّنٍ وَمَنْ يُقَارِبُ

فائدتان

الأولى: قال البُلْقِيني: أول التابعين موتاً أبو زيد مَعْمر بن زيد، مات بخراسان، وقيل: بأذربيجان سنة ثلاثين، وآخرهم موتاً خَلَفُ بن خليفة. مات سنة ثمانين ومئة.

الثانية: مما يُلْغَزُ به: تابعي، يقول: قال رسول الله ﷺ كذا، وحديثه مسند لا مرسل، ويحتج به من غير خلاف، وذلك مثل التَّنُوخِيّ، رسول هِرَقْل؛ فإنه مع كونه تابعيّاً اتفاقاً محكوم لما سمعه بالاتصال لا بالإرسال، ولا خلاف في الاحتجاج به؛ فإن محل كون قول التابعي مرسلاً ما لم يسمع من النبي ﷺ وهو كافر، ثم أسلم بعد موته، أو قبله ولم يره، ثم حدث عنه بما سمع منه، كما وقع للتنوخي هذا، وذلك لأننا إنما رددنا المرسل لجهالة الواسطة، وهي هنا مفقودة.

وهذا عكس ما مر في محمد بن أبي بكر وأضرابه ممن رأى النبي ﷺ، وهو غير مميز؛ فإنه على القول بأنه صحابي حديثه من قبيل مراسيل كبار التابعين، لا من قبيل مراسيل الصحابة. ويلغز به، فيقال: صحابي حديثه مرسل لا يقبله من يقبل مراسيل الصحابة وهذا قد قدمته في أول بحث الصحابة، ولكن أعدته جمعاً للنظائر تتميماً للفائدة.

وهذا آخر الكلام على ما أردت ذكره في المقدمة، وأشرع في المقصود بعون الصمد الحي الودود، فأقول: لا بد قبل الشروع في

المقصود من الإتيان بشيء يسير من السيرة النبوية ، وإن كان علماء أهل التآليف فيها ، تكفلوا بها ، وأتوا في تآليفهم فيها بما لايقبل الزيادة ، وكادت سيرته ﷺ تحصر.

نبذة من السيرة النبوية

وها أنا أذكر منها نبذة مختصرة ، تبركاً بالإتيان بها في أول الكتاب ، ولأن بعض العلماء قال: إن ذاته ﷺ الشريفة هي موضوع علم الحديث روايةً من حيث إنه نبي ، وموضوع الفن لا بد من معرفته وتعريفه ، وإن كان هو ﷺ معروفاً عند جميع المسلمين ، ولكن أذكر ما أُذْكُرُهُ تيمناً بسيرة أسعد الخلق ﷺ ثم بعد ما أذكر منها أذكر شيئاً من تعريف البخاري، صاحب هذا التأليف المقصود كشف خباياه ، فأقول:

اعلم أن أول ما خلق الله من شيء على ما أخرجه عبدالرزاق بسنده عن جابر ، رضي الله تعالى عنه نور النبي ﷺ من نوره ، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله تعالى ، ولم يكن في ذلك الوقت لوحٌ ، ولا قلمٌ ، ولا جنةٌ ، ولا نارٌ ، ولا سماءٌ ، ولا أرضٌ ، ولا شيءٌ من الأشياء؛ فلما أراد الله أن يخلقَ الخَلْقَ ، قسم ذلك النور أربعة أجزاء.. إلخ الحديث الطويل ، وقد نقلناه مُسْتَوْفى في كتابنا «الفتوحات الربانية» في الرسالة العاشرة.

ثم لما خلق الله آدم ، جعل ذلك النور المحمدي في جبينه ، وصار من ذلك الوقت كلما حملت زوجة بولد يكون جَدّاً له ، عليه الصلاة والسلام ، ينتقل ذلك النور إلى جبينها ، وإذا وُلِدَ ذلك المولودُ انتقل إلى جبينه إلى أن ولد ﷺ ، ولأجل هذا أخرج أبو نُعَيْم ، والخَرائِطِيُّ وابن عساكر ، عن ابن عباس ، قال:

لما خَرَجَ عبدالمطلب بابنه عبدالله ليزوجه ، مَرَّ به على كاهنة من قبالة؛ قد قرأت الكتب ، يقال لها: فاطمة بنت مر الخَثْعَمِيّة ، فرأت نور النبوة في وجه عبدالله؛ فقالت له: لك مثل الإبل التي نحرت عنك ، وقع

علي الآن ، لما رأت في وجهه من نور النبوة ، ورجت أن تحمل بهذا النبي الكريم ﷺ ثم خرج به حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زُهْرة ، وهو يومئذ سيد بني زهرة نسباً وشرفاً ، فزوجه ابنته آمنة ، وهي يومئذٍ أفضل امرأة في قريش نسباً ، وموضِعاً ، فزعموا أنه دخل عليها حين مَلَكَها مكانه ، فوقع عليها يوم الاثنين في شعب أبي طالب ، عند الجَمْرة ، فحملت برسول الله ﷺ ثم خرج من عندها ، فأتى المرأة التي عرضت عليه ما عَرَضَتْ ، فقال لها : ما لك لا تَعْرِضين علي اليوم ما عرضت علي بالأمس؟ فقالت: فارقك النور الذي كان معك بالأمس ، فليس لي بك اليوم حاجة ، إنما أردت أن يكون النور فيّ ، فأبى الله إلا أن يجعله حيث شاء. وفي رواية عن ابن عباس: أن المرأة من بني أسد بن عبد العُزّى ، واسمها قَتِيلة أو رَفيقة بنت نَوْفَل ، وفي هذه الرواية أنه أجابها بقوله:

أَمّـا الـحَـرَامُ فَالـمَـمَـاتُ دُونَـهُ وَالـحِـلُّ لا حِـلٌّ فَأَسْـتَـبِـينُـهُ
فَكَـيْـفَ بِالأَمْـرِ الـذي تَبْـغِـينَـهُ يحْـمِـي الـكَـرِيـمُ عِرْضَـهُ وَدِينَـهُ

ولأجل هذا النور ، سجد رئيس فِيَلَةِ أَبْرهة ـ الذي كان لا يسجُدُ لأبرهة ـ لعبد المطلب لما نظر في وجهه. وفي النُّطْقِ المفهوم أنه قال له: السلام على النور الذي في ظهرك يا عبدالمطلب.

وقد اتفق أهل العلم بالأنساب والأخبار ، وسائر العلماء بالأمصار ، على رفع نسبه إلى عدنان ، واختلفوا اختلافاً كثيراً ، فيما بين عدنان وإسماعيل ، وفيما بين إبراهيم ونوح ، عليهما الصلاة والسلام. وقد جمع في «فتح الباري» أكثر من عشرة أقوال. ولأجل الاضطراب الشديد والخلاف أعْرَضتُ عن سياق النسب بين عدنان وإسماعيل.

وقد روي في «مسند الفردوس» أنه ﷺ كان إذا انتسب لم يجاوز مَعدِّ ابن عدنان ثم يمسك ، ويقول: «كذب النسابون» مرتين أو ثلاثاً ، لكن قال السُّهَيْلِيُّ: الأصحُّ في هذا الحديث أنه من قول ابن مسعود. وقال غيره: كان ابن مسعود إذا قرأ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُم قَوْمِ

نوحٍ وعادٍ وثمودَ والَّذينَ مِنْ بَعْدِهِم لا يَعْلَمُهُم إلا اللهُ﴾ [إبراهيم: ٩].
قال: كذب النسابون يعني أنهم يدَّعون علم الأنساب، والله تعالى نفى علمها عن العباد. وروي عن عمر أنه قال: إنما ينتسب إلى عدنان، وما فوقه لا يُدرى ما هو. وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: بينَ عدنان، وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون. وروي عن عروة بن الزبير أنه قالَ: ما وجدنا أحداً يعرف بعد عدنان. وسئل مالك عن الرجل يرفع نسبه إلى آدم فكره ذلك، وقال: من أخبره بذلك؟ وروي ذلك عنه في رفع نسب الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام؛ فالذي ينبغي الإعراض عنه.

والنسب المتفق عليه هو أنه محمد بن عبدالله الذبيح بن عبد المطلب، واسمه شيبة الحمد على الصحيح. قيل: سمي به لأنه ولد وفي رأسه شيبة، وقيل: اسمه عامر، وكنيته أبو الحارث بابن له هو أكبر أولاده. وإنما قيل له: عبدالمطلب، لأن أباه هاشماً قال لأخيه المطلب وهو بمكة حيث أدركته الوفاة: أدرك عبدَك بيثرب؛ فمن ثَم سُمِّيَ عبدَالمطلب. وقيل: إن عمَّه المطلب جاء به إلى مكة رديفه وهو بهيئة بَذَّة؛ فكان يُسأل عنه، فيقول: هو عبدي حياء أن يقول: هو ابن أخي. فلما أدخله وأحسن حاله، أظهر أنه ابن أخيه؛ فلذلك قيل له: عبدُالمطلب. وهو أوَّل من خضب بالسواد من العرب، وعاش مئة وأربعين سنة. وأمه سلمى بنت عمرو بن زيد من بني عدي بن النجار. وعبد المطلب، ابن هاشم، واسمه عمرو، وإنما قيل له: هاشم، لأنه كان يهشِمُ الثريدَ لقومه في الجدب، وفي ذلك قال الشاعر:

عَمرو العُلى هَشَم الثَّريدَ لِقَوْمِهِ ... وَرِجَالُ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ عِجَافُ

وهاشم بن عبد مناف، واسمه المغيرة، ابن قُصي، بضم القاف تصغير قَصي، أي: بعيد سمي بذلك، لأنه تقصى مع أمه فاطمة بنت سعد من بني عُذرة، ونشأ مع أخواله مِن كلب في باديتهم، واسمه زيد. وقيل: يزيد، وكان يُدعى مجمعاً، لأنه جمع القبائل من قريش حين انصرافه إليها. وفيه يقول الشاعر:

أبوكـم قُصَيٌّ كان يُدْعى مُجمِّعاً   به جمَّع اللهُ القَبائِلَ مِن فِهْرِ

وذلك حين اشترى قُصي من خاله أبي غبشان ـ بضم المعجمة وسكون الموحدة ـ واسمه المحرِّش «باسم الفاعل» ابن حُليل «بالتصغير» ابن عمرو ابن لحي ، أخو أم قصي ، حُبّى ـ بضم المهملة وتشديد الموحدة مع الإمالة ـ إمرة البيت بأذوادٍ من الإبل ، وقيل : بزِقٍّ خمر ، وكان في عقله شيء فخدعه . وجمع بطون بني فِهر ، وحارب خُزاعة حتى أخرجهم من مكة ، وغلب على أمر البيت ، وشرع لقريش السقاية والرِّفادة ؛ فكان يصنع الطعام أيامَ مِنى ، والحياض للماء ، فيُطعم الحجيج ويسقيهم ، وهو الذي عَمَّرَ دار الندوة بمكة ، فإذا وقع لقريش شيء ، اجتمعوا فيها ، وعقدوه بها . وكون اسم أمه حُبّى هو الذي في «الفتح» ، وما مَرَّ من تسميتها فاطمة لابن عبد البر ، وهو (ابن كلاب) واسمه حكيم ، وقيل : عروة . وكلاب إما منقول من المصدر الذي في معنى المكالبة ، نحو كالبت العدو مكالبة ، وإما من الكلاب جمع كلب ، لأنهم يريدون الكثرة كما تَسَمَّوْا بسباع . وسئل أعرابي ؛ لمَ تسمون أبناءَكم بشر الأسماء ، نحو كلب وذئب ، وعبيدكم بأحسن الأسماء نحو مرزوق ورباح؟ فقال : إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا ، وعبيدنا لأنفسنا ، يريدون أن الأبناء عدةٌ للأعداء ، وسهام في نحورهم ، فاختاروا لهم هذه الأسماء . وهو (ابن مرة ابن كعب) وهو أول من جمع العروبة ، وكانت تجتمع إليه قريش في هذا اليوم ، فَيَخْطُبُهم ويذكرهم بمبعث النبي ـ ﷺ ـ ويُعلمهم بأنه من ولده ، ويأمرهم باتباعه ، والإيمان به ، ويُنشد في ذلك أبياتاً منها :

وليتني شَاهِدٌ فَحْوَاء دَعْوَتِهِ   حِينَ العشيرة تَبْغي الحَقّ خِذلانا

وهو «ابن لؤي» تصغير اللأي بوزن العصي ، وهو الثور الوحشي «بن غالب بن فهر» واسمه قريش وإليه تنسب قريش ، فما كان فوقه ، فكناني لا قرشي ، على الصحيح ، ويأتي ما في ذلك من الخلاف . وهو «ابن مالك بن النضر» واسمه قيس «ابن كنانة بن خُزيمة» تصغير «خزمة» بن

مدركة واسمه عمرو «بن إلياس» بكسر الهمزة في قول وبفتحها في قول ، ضد الرجاء ، واللام فيه للتعريف ، والهمزة للوصل قال السهيلي : وهذا أصح . وهو أول من أهدى البُدْنَ إلى البيت الحرام . ويُذْكَرُ أنه كان يسمع في صلبه تلبية النبي - ﷺ - بالحج . وهو «ابن مضر» وهو أول من سَنَّ الحُداء للابل ، وكان من أحسن الناس صوتاً . وهو بضم الميم وفتح الضاد ، يقال : إنه سُمِّي به ، لأنه كان مولعاً بشرب اللبن الماضر ، أي : الحامض ؛ وفيه نظر ، لأنه يستدعي أنه كان له اسم غيره قبل أن يتصف بهذه الصفة . نعم ، ويمكن أن يكون هذا اشتقاقه ، ولا يلزم أن يكون متصفاً به حالة التسمية . وهو «ابن نزار» بكسر النون من النزر وهو القليل . قيل : لأنه لما ولد ، ونظر أبوه إلى نور محمد ﷺ بين عينيه فرح فرحاً شديداً ، وأطعم ، وقال : إن هذا كلَّه نزر في حق هذا المولود ، فسمي نزاراً لذلك . وهو «ابن معد بن عدنان» .

قال ابن دِحْية : أجمع العلماءُ -والإجماعُ حجة- على أن رسول الله ﷺ إنما انتسب إلى عدنان ولم يتجاوزه .

وروى الطبراني ، بإسناد جيد ، عن عائشة ، قالت : «استقام نسبُ الناس إلى مَعَدٍّ بن عدنان» . وروى ابن سعد من حديث عمرو بن العاص ، بإسناد فيه ضعف ، مرفوعاً «أنا محمد بن عبدالله» وانتسب حتى بلغ النضر بن كِنانة قال : فمن قال غير ذلك فقد كذب . وروى ابنُ حبيب في «تاريخه» عن ابن عباس ، قال : «كان عدنان ومعد وربيعة ومضر ، وخزيمة ، وأسد ، على ملة إبراهيم فلا تذكروهم إلا بخير» وروى الزبير ابن بكار من وجه آخر عن ابن عباس : «لا تسبوا مُضَرَ ، فإنه كان قد أسلم» . هذا نسبُه - عليه الصلاة والسلام - المتفق عليه من جهة الأب . أما من جهة الأم ، فأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب إلى آخر النسب الشريف الزهرية ، تزوَّجها عبدالله بن عبد المطلب ، وهو ابن ثلاثين سنة . وقيل : كان يومئذ ابن خمس وعشرين سنة .

خرج به أبوه عبدالمطلب إلى وهب بن عبد مناف ، فزوجه ابنته كما مر ، وقيل: كانت آمنة في حِجر عمها وهب بن عبد مناف ، فأتاه عبدالمطلب ، فخطب إليه ابنته هالة لنفسه ، وخطب على ابنه عبدالله ابنة أخيه آمنة ، فزوجه ، وزوج ابنه في مجلس واحد ، فولدت آمنة لعبدالله رسول الله ﷺ. وولدت هالة لعبد المطلب حمزة.

والمشهور عند أهل النسب أن زهرة اسم الرجل ، وشذ ابن قتيبة ، فزعم أنه اسم امرأته ، وأن ولدها غلب عليهم النسب إليها ، وهو مردود بقول إمام أهل النسب هشام بن الكَلبي : إن اسم زهرة المغيرة ، فإن ثبت قول ابن قتيبة ، فالمغيرة اسم الأب ، وزهرة اسم امرأته ، فنسب أولادهما إلى أمهم ، ثم غلب ذلك حتى ظن أن زهرة اسم الأب ، فقيل: زهرة بن كلاب ، وزُهرة بضم الزاي بلا خلاف ، فهو ﷺ قرشي الأب والأم. وفي صحيح البخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «لم يكن بطنٌ من قريش إلا وله فيه قرابة».

ما يُقال فيمن يقال له: قرشي وعلى اشتقاق التسمية

وها أنا أذكر ما قيل فيمن يقال: إنه قرشي ، وما ورد من الخلاف في معنى قريش.

ففي قريش أربعة أقوال.

أحدها: أنهم ولد النضر بن كنانة ، وبذلك جزم أبو عبيدة أخرجه ابن سعد ، وروي عن هشام بن الكلبي عن أبيه: كان سكان مكة يزعمون أنهم قريش دون سائر بني النضر حتى رحلوا إلى النبي ﷺ ، فسألوه عن قريش فقال: «من ولد النضر بن كنانة».

وقيل: إن قريشاً هم ولد فِهر بن مالك بن النضر ، وهو قول الأكثر ، وبه جزم مصعب ، قال: ومن لم يلده فِهر ، فليس بقرشي ، وإنما هو كناني ، يعني مما فوقه.

وقيل: أول من نسب إلى قريش قُصي بن كلاب. فروى ابن سعد: أن عبدالله بن مروان سأل محمد بن جبير، متى سميت قريش قريشاً؟ قال: حين اجتمعت إلى الحرم بعد تفرقها، قال: ما سمعت بهذا، ولكن سمعت أن قُصياً كان يقال له: القرشي، ولم يسمِّ أحد قريشاً قبله. وروى ابن سعد من طريق المقداد: لما فرغ قُصي من نفي خُزاعة من الحرم، تجمعت إليه قريش، فَسُمِّيَتْ يومئذ قريشاً لحال تجمعها. وحكى الزبير ابن بكار عن عمه مصعب: أن أول من تسمَّى قريشاً قريشُ بن بدر بن مخلد ابن النضر بن كِنانة، وكان دليلَ بني كنانة في حروبهم، فكان يُقال: قدمت عير قُريش، فسميت قريش به قريشاً، وأبوه صاحب بدر الموضع المعروف.

واختلف في اشتقاق قريش على عشرة أقوال، فقيل: من التقرش وهو التجمع، وذلك إما لتجمعهم على قصي كما مر، أو لأن الجد الأعلى جاء في ثوب واحد متجمعاً فيه فسمي قريشاً. وقيل: لتجمعهم للتجارة؛ فهذه ثلاثة أقوال على أنه من التجمع. وقيل: من التقرش، وهو أخذ الشيء أولاً فأولاً، وقال المُطرزي: سميت قريش بدابة في البحر هي سيدة دواب البحر، وكذلك قريش سادة الناس. قال صاحب «المحكم»: قريش دابة في البحر، ما تدع دابة في البحر إلا أكلتها، فجميع الدواب تخافها، قال الشاعر:

وَقُرَيْشٌ هِيَ الَّتِي تَسْكُنُ البَحْـ ـرَ بِها سُمِّيَتْ قُرَيْشٌ قُرَيْشَا
تَأْكُلُ الغَثَّ والسَّمِينَ وَلَا تَتْـ ـرُكُ فيه لِذي جَنَاحَيْنِ رِيشَا
هكذا في البِلادِ حَيُّ قُرَيْشٍ يَأْكُلُونَ البِلادَ أَكْلاً كَمِيشَا
وَلَهُمْ آخِرَ الزَّمَانِ نَبِيٌّ يُكْثِرُ القتلَ فيهم والخُموشَا

قال في «الفتح»: الذي سمعته من أفواه أهل البحر، القِرش بكسر القاف، وسكون الراء، لكن البيت المذكور شاهد صحيح، فلعله من

تغيير العامة ، فإن البيت الأخير من الأبيات المذكورة يدل على أنه من شعر الجاهلية ، ثم ظهر لي أنه من مصغر القِرش الذي بكسر القاف.

وقد أخرج البيهقي عن ابن عباس ، قال: قريش ـ تصغير قرش ـ وهي دابة في البحر ، لا تمر بشيء من غث أو سمين إلا أكلته.

وقيل: سمي قريشاً لأنه كان يقرش عن خَلة الناس وحاجتهم ، ويسُدُّها ، والتقريش: هو التفتيش.

وقيل: سموا بذلك لمعرفتهم بالطعان ، والتقريش وقع الأسِنة ، وقيل: التقرش: التنزه عن رذائل الأمور.

وقيل: هو من أقرشت الشجة ، إذا صدعت العظمَ ولم تهشمه. وقيل: أقرش بكذا: إذا سعى به. وقيل: غير ذلك. ولله در القائل:

وَنِسْبَةُ عِزٍّ هاشِمٌ مِنْ أُصُولِهَا وَمَحتِدُهَا المرضيُّ أَكْرَمُ محْتِدِ
سَمَتْ رُتْبَةً عَلياءَ أَعْظِمْ بِقَدْرِهَا وَلَم تَسْمُ إلا بالنَّبيِّ مُحَمَّدِ

وعِزُّ قريش إنما هو منه ﷺ كما قال الشاعر:

وكَمْ أَبٍ قَدْ عَلا بابنٍ ذُرَى حَسَبٍ كَمَا عَلَتْ برسولِ اللهِ عَدْنَانُ

وقد أخرج مسلم من حديث واثلة مرفوعاً: «إن الله اصطفى كِنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى من كِنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم».

وروى الترمذي ـ وقال: حديث حسن ـ عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله خلق الخلق فجعلني من خير فرقهم ، وخير الفريقين ، ثم تخير القبائل ، فجعلني في خير قبيلةٍ ، ثم تخير البيوت فجعلني في خير بيوتهم ، فأنا خيرهم نفساً ، وخيرهم بيتاً» أي: أصلاً.

وروى الطبراني عن ابن عمر قال: «إن الله اختار خلقه فاختار منهم بني آدم، ثم اختار منهم العرب، ثم اختارني من العرب، فلم أزل خياراً من خيار ألا من أحب العرب فبحبي أحَبَّهُم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغَضَهُمْ».

واعلم أنه ﷺ، لم يزل ينتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات إلى أن وُلِدَ، فقد روى ابن سعد، وابن عساكر عن هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه، قال: كانت للنبي ﷺ خمس مئة أم، فما وجدت فيهن سِفاحاً، ولا شيئاً مما كان في أمر الجاهلية. وروى الطبراني في «الأوسط»، وأبو نعيم، وابن عساكر عن علي بن أبي طالب، أن النبي ﷺ، قال: «خرجتُ من نكاح ولم أخرج من سِفاح، من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي، لم يصبني من سفاح الجاهلية شيء».

وروى أبو نعيم، عن ابن عباس مرفوعاً: «لم يلتق أبواي قطُّ على سفاح؛ لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة، مصفى مهذباً، حتى لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما».

وروى البزار عنه في قوله تعالى: ﴿**وتقلبك في الساجدين**﴾ قال: من نبي إلى نبي حتى أخْرَجْتُك نبياً. وروى عنه أبو نعيم أيضاً في الآية أنه قال: «ما زال النبي ﷺ، يتقلَّبُ في أصلاب الأنبياء حتى ولدته أمه».

وعن جعفر بن محمد عن أبيه في قوله تعالى: ﴿**لَقد جاءَكُم رَسُولٌ منْ أنْفُسِكُمْ**﴾ [التوبة: ١٢٨] قال: لم يُصبه شيء من ولادة الجاهلية، قال: وقال النبي ﷺ؛ «خرجت من نِكاح غير سِفاح». وروى ابن مردويه عن أنس قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿**لقد جاءكم رسول من أنْفَسِكُمْ**﴾ بفتح الفاء. وقال: أنا أنفسكم نسباً وصهراً وحسباً، ليس من آبائي من لدن آدم سفاح كلنا نكاح، وفي «الدلائل» لأبي نعيم، وأخرجه الطبراني في

«الأوسط» ، عن عائشة ، عنه ﷺ ، عن جبريل قال: قَلَّبتُ مشارقَ الأرض ومغاربها؛ فلم أر رجلاً أفضلَ من محمد ، ولم أر بني أبٍ أفضلَ من بني هاشم. قال الحافظ شيخ الإسلام ابن حجر: لوائح الصحة ظاهرة على صفحات هذا المتن. وفي البخاري عن أبي هريرة ، قال ﷺ: «بُعِثْتُ من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى كنت من القرن الذي كنت فيه».

موت والده عبدالله

ولما تم مِنْ حمله عليه الصلاة والسلام شهران ، توفي أبوه عبدالله ، وقيل: توفي وهو في المهد ، وقيل: وهو ابن شهرين ، وقيل: ابن سبعة ، وقيل: ابن ثمانية وعشرين شهراً ، والمشهور الأول.

وكان عبدالله قد رجع ضعيفاً مع قريش لما رجعوا من تجارتهم ، ومرُّوا بالمدينة فتخلف عند أخواله بني عدي بن النجار ، فأقام عندهم مريضاً شهراً ، فلما قَدِمَ أصحابهُ مكة سألهم عبدالمطلب عنه ، فقالوا: خلفناه مريضاً ، فبعث إليه أخاه الحارث ، فوجده قد توفي ، ودُفِنَ في دار التابعة. وقيل: إنه خرج إلى المدينة يمتارُ التمر لأبيه. وقيل: خرج إليها زائراً لأخواله. وقيل: دفن بالأبواء. ورثَتْه زوجته آمنة فقالت:

عَفا جانِبُ البطحاءِ مِن آل هاشمٍ ... وجاوَرَ لحداً خارجاً في الغماغم
دعته المنايا دعوةً فأجابها ... وما تَرَكَتْ في الناس مثلَ ابن هاشم
عَشِيَّةَ راحوا يحملون سريره ... تعاورَه أصحابُه في التزاحم
فإن تَكُ غالته المنايا وريبها ... فقد كان مِعطاءً كثيرَ التراحم

وقيل لجعفر الصادق: لِمَ يُتِّمَ النبي ﷺ من أبويه؟ قال: لئلا يكون عليه حق لمخلوق ، نقله أبو حيان في «البحر».

قلت: ولئلا ينسب شيء من أخلاقه السنية إلى أنها من تعليم البشر وتأديبهم.

مدة الحمل به ومحل ولادته
صلى الله عليه وسلم

واختلف في مدة الحمل به ، فقيل: تسعة أشهر ، وقيل: عشرة ، وقيل: ثمانية ، وقيل: سبعة ، وقيل: ستة. وولد عليه الصلاة والسلام ، في الدار التي كانت لمحمد بن يوسف أخي الحجاج ، ويقال: بالشعب .

عام ولادته صلى الله عليه وسلم

واختلف في عام ولادته ، ﷺ ، فالأكثرون على أنه عام الفيل ، ومن العلماء من حكى الاتفاق عليه ، وقال: كل قول يخالفه وَهْمٌ. والمشهور أنه وُلِدَ بعد الفيل بخمسين يوماً ، وإليه ذهب السهيلي في جماعة ، وقيل: بعدها بخمسة وخمسين يوماً ، وإليه ذهب الدمياطي في آخرين ، وقيل: بشهر ، وقيل: بأربعين يوماً ، وقيل: بعد الفيل بعشر سنين ، وقيل: قبل الفيل بخمس عشرة سنة ، وقيل: غير ذلك. والمشهور أنه بعد الفيل؛ لأن قصة الفيل كانت توطئة لنبوته ، وتقدمة لظهوره وبعثته ، وإلا أصحاب الفيل كانوا نصارى أهل كتاب ، وكان دينهم خيراً من دين أهل مكة إذ ذاك؛ لأنهم كانوا عُبادَ أوثان ، فنصرهم الله تعالى على أهل الكتاب نصراً لا صنع للبشر فيه ، إرهاصاً وتقدمة للنبي الذي خرج من مكة ، عليه الصلاة والسلام.

قلت: ولأجل كون قضية أصحاب الفيل إرهاصاً له ، ﷺ ، سلط الله الحَجاج على الكعبة فخربها ، ولم يَحْدُثْ فيه شيء ، وذلك لأن الإرهاص إنما يحتاج إليه قبلَ ظهوره ، عليه الصلاة والسلام؛ وأما بعد أن ظهر ، وتأكدت نبوته بالدلائل القطعية ، فلا حاجة إلى شيء من ذلك ، كما أنه تعالى في آخر الزمان يُسلِّط عليها ذا السويقتين ، رجل من الحبشة ، ينقضها ويرميها في اليم حجراً حجراً ، كما في الحديث الصحيح.

الشهر الذي وُلِدَ فيه

واختلف في الشهر الذي ولد فيه ، والمشهور أنه ولد في ربيع الأول وهو قول جمهور العلماء. ونقل ابن الجوزي الاتفاق عليه. وفيه نظر فقد قيل: في صفر ، وقيل: في ربيع الآخر ، وقيل: في رجب ، ولا يصح ، وقيل: في رمضان ، ونقل عن ابن عمر ، بإسناد لا يصح ، وهو موافق لمن قال: إن آمنة حملت به في أيام التشريق. وأغرب من قال: ولد في عاشوراء.

في أي يوم من الشهر ولد

واختلف أيضاً في أي يوم وُلِدَ من الشهر ، فقيل: إنه غير معين ، إنما ولد يوم الاثنين من ربيع الأول من غير تعيين؛ والجمهورُ على أنه معين منه ، فقيل: لليلتين خلتا منه ، وقيل: لثمان خلت منه ، وهو اختيارُ أكثر أهل الحديث ، وأكثر من له معرفة بهذا الشأن ، وقيل: لعشر خلت منه ، وقيل: لاثنتي عشر ، وقيل: لسبع عشرة ، وقيل: لثمان عشرة ، وقيل: لثمان بقين منه ، وهذان القولان الأخيران غير صحيحين عمن حكيا عنه. والمشهور من هذا الخلاف أنهُ ولد ثاني عشر ربيع الأول ، وإنما كانت ولادته ﷺ في شهر ربيع الأول ، ولم تكن في شيء من الأشهر ذوات الشرف ، لأنه ﷺ لا يتشرف بالزمان ، وإنما يتشرَّف به الزمان والمكان؛ فلو وُلِدَ في شهر من الشهور المشرفة ، كرمضان وذي الحجة والمحرم ورجب ، لتوهم أنه تشرَّف بها؛ فجعل الله تعالى مولده ، عليه الصلاة والسلام في غيرها ، ليظهر عنايته به ، وكرامته عليه ، وإذا كان يوم الجمعة الذي خلق فيه آدم خص بساعة لا يصادفها عبد مسلم ، يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه ، فما بالك بالساعة التي ولد فيها سيد المُرسلين عليه الصلاة والسلام.

اليوم الذي ولد فيه

واختلف في اليوم الذي ولد فيه ، والصحيح أنه يوم الاثنين ؛ فقد روى مسلم عن أبي قتادة الأنصاري «أنه ﷺ سئل عن صيام يوم الاثنين : فقال : ذلك يَوْم وُلِدْتُ فيه ، وأُنْزِلَتْ علَـيَّ فيه النُّبوَّة» وهذا يدل على أنه عليه الصلاة والسلام ، ولد نهاراً .

وفي «المسند» عن ابن عباس قال : ولد ﷺ يوم الاثنين ، وخرج مهاجراً من مكة إلى المدينة يوم الاثنين ، واستنبىء يوم الاثنين ، ودخل المدينة يوم الاثنين ، ورفع الحجر يوم الاثنين .

وكذا فتحُ مكة ، ونزول سورة المائدة يوم الاثنين ، وقد روي أنه ولد يوم الاثنين ، عند طلوع الفجر؛ فقد روى أبو بكر بن أبي شيبة ، وأخرجه أبو نعيم في «الدلائل» ، بسند فيه ضعف ، عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : كان بمر الظهران راهب يسمى عيصى من أهل الشام ، وكان يقول : يُوشِك أن يُوْلَد فيكم يا أهل مكة مولود تدينُ له العرب ، ويملك العجم ، هذا زمانهُ ، فكان لا يُولد بمكة مولود إلا يسأل عنه ، فلما كان صبيحة اليوم الذي ولد فيه رسول الله ﷺ خرج عبدُالمطلب حتى أتى عيصى ، فناداه فأشرف عليه ، فقال له : كن أباه؛ فقد وُلِدَ ذلك المولود الذي كنتُ أحدثكم عنه يوم الاثنين ، ويُبعث يوم الاثنين ، ويموت يوم الاثنين ، قال : وُلِدَ لي الليلة مع الصبح مولود ، قال : فما سميته؟ قال : محمداً ، قال : والله لقد كنت أشتهي أن يكون هذا المولودُ فيكم أهلَ هذا البيت بثلاث خصال تعرفه ، فقد أتى علي منها طلع نجمه البارحة ، وأنه وُلِدَ اليوم ، وأن اسمه محمد .

وقيل : كان مولده عليه الصلاة والسلام ، عند الغَفْرِ ، وهي ثلاثة أنجم صغار ينزلها القمر ، وهو مولد النبيين ، ووافق ذلك من الشهور الشمسية نيسان ، وهو برج الحمل ، وكان لعشرين مضت منه .

ولم يجعل الله تبارك وتعالى في يوم الاثنين يوم مولده ﷺ من التكاليف ما جعل في يوم الجمعة المخلوق فيه آدم من الجمعة والخطبة إكراماً لنبيه ﷺ بالتخفيف عن أمته عناية بوجوده، قال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧] من جملة ذلك عدم التكليف.

على أنه ولد ليلاً

وقيل: إنه ﷺ وُلِدَ ليلاً، فروى الحاكم عن عائشة قالت: كان بمكة يهودي يتّجر فيها، فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ قال: يا معشر قريش، هل وُلِدَ فيكم الليلة مولود؟ قالوا: نعم. قال: ولد الليلة نبي هذه الأمة الأخيرة، بين كتفيه علامة فيها شعرات متواتراتٌ، كأنها عَرْفُ فرس؛ فخرجوا باليهودي حتى أدخلوه على أمه، فقالوا: أخرجي لنا ابنك، فأخرجته، وكشفوا عن ظهره، فرأى تلك الشامة، فوقع اليهودي مغشياً عليه. فلما أفاق قالوا: مالك ويلك، قال: ذهبت والله النبوة من بني إسرائيل.

قال بدرالدين الزركشي: الصحيح أن ولادته كانت نهاراً، وأما ما روي من تدلي النجوم، فضعفه ابن دحية لاقتضائه أن الولادة ليلاً، قال: وهذا لا يصلح أن يكون تعليلاً؛ فإن زمان النبوة صالح للخوارق، ويجوز أن تسقط النجوم نهاراً.

قلت: لا يحكم ببطلان الأحاديث إلا بدليلٍ قاطع على بطلانها، وتدلي النجوم ليلة ولادته ويكون هو عليه الصلاة والسلام إنما يُولد نهاراً تقدمة على ولادته ممكن غيرُ مُنافٍ لولادته نهاراً على ما هو الصحيح.

فضل ليلة المولد على ليلة القدر

وعلى القول بأنه ﷺ وُلِدَ ليلاً؛ فهل ليلة ولادته أفضل أم ليلة القدر؟

والجواب: أن ليلة مولده عليه الصلاة والسلام، أفضلُ من ليلة القدر لثلاثة وجوه.

الأول: هو أن ليلة المولد ليلة ظهوره ، عليه الصلاة والسلام ، وليلة القدر معطاة له ، وما شرُف بظهور ذات المشرف من أجله أشرفُ مما شرف بسبب ما أُعطيه ، ولا نزاع في ذلك؛ فكانت ليلة المولد بهذا الاعتبار أفضل.

الثاني: أن ليلة القدر شرفت بنزول الملائكة فيها ، وليلة المولد شرفت بظهوره ، ﷺ فيها؛ ومن شرفت به ليلة المولد أفضل ممن شرفت بهم ليلة القدر على ما هو المرتضى عند أهل السنة ، فتكون ليلةُ المولد أفضل ، مع أن ليلة القدر شرفت بنزولهم فيها ، وليلة المولد شرفت بوجوده وظهوره فيها ، وبين النزول والوجود فرق ظاهر.

الثالث: أن ليلة القدر وقع التَّفضُّلُ بها على أمة محمد ، ﷺ ، وليلة المولد وقع التفضل بها على سائر الموجودات؛ فقد بعثه الله تعالى رحمة للعالمين ، فعمت به النعمة على جميع الخلائق؛ فكانت ليلة المولد أعم نفعاً ، فكانت أفضل ، فرحم الله تعالى من قال:

يَقولُ لَنا لِسَانُ الحَالِ مِنْهُ وقَوْلُ الحَقِّ يَعْذُبُ للسَّمِيعِ
فوَجْهي والزَّمانُ وشَهرُ وضْعِي رَبيعٌ في ربيعٍ في ربيعٍ

إرضاعه صلى الله تعالى عليه وسلم

ولما ولد ، عليه الصلاة والسلام ، كان أول من أرضعته ثويبة ، أمة أبي لهب ، ولما بشرته بولادته ، عليه الصلاة والسلام ، عتقها. وفي الأحاديث الصحاح أن أبا لهب رؤي في النوم ، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: في النار إلا أنه خفف عني كل ليلة اثنين ، وأمص من بين أصبعي هاتين ماء ، وأشار إلى النُّقرة التي بين الإبهام والسبابة ، وذلك بإعتاقي لثويبة ، عندما بشرتني بولادة النبي ، ﷺ ، وإرضاعها له.

قال ابن الجزري: فإذا كان هذا أبو لهب الكافر الذي نزل القرآن بذمه جوزيَ بفرحه بمولد النبي ، ﷺ ، فما حالُ الموحد من أمته الذي يُسَرُّ

بمولده ، ويبذُلُ ما تصل إليه قدرته في محبته ، عليه الصلاة والسلام ، لعمري إنما يكون جزاؤه من الله الكريم أن يدخله بفضله جنات النعيم.

قلت: ولأجل هذا المعنى ما زال المسلمون يُعظِّمون المولد الشريف ، جاعلين له عيداً أعظم من كل عيد ، وهو حقيقٌ بذلك وجدير.

وأرضعت ثويبة معه ، ﷺ ، حمزة بن عبدالمطلب ، وأبا سلمة بن عبدالأسد ، وكان النبي ، ﷺ ، يُكرمها ، وكانت تدخل عليه.بعد أن تزوج خديجة ، فكانت خديجة تُكرمها ، وكان يبعث إليها من المدينة بكسوة وصلة إلى أن ماتت بعد فتح خيبر فبلغته ، ﷺ ، وفاتها؛ فسأل عن ولدها مسروح الذي أرضعته بلبنه ، فقيل له: قد مات ، ثم سأل عن قرابتها ، فقيل له: لم يبق منهم أحد. ثم بعد ثويبة كان استرضاعه في بني سعد بن بكر ، أرضعته حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية وما رأته حليمة من الخوارق من يوم أرضعته شهير كثير جداً ، من دَرِّ شارفها ، ونطق أتانها ، وخِصب غنمها ، وكثرة لبنها ، وغير ذلك مما لا يُحصى ، وكانت تقول في ترقيصها له عليه الصلاة والسلام.

يــا ربِّ إذ أعطيتَـه فأبْـقِـه
وأَعْلِـهِ إلى العُلـى وأَرقِـه
وادْحَـضْ أَباطيـلَ العِـدا بِحَقِّـه

وكانت الشيماء أخته من الرضاعة تقول.

هذا أَخٌ لي لَمْ تَلِدْه أُمِّي ولَيس مِنْ نَسلِ أبـي وعـمِّي
فديتـه مِنْ مخـولٍ مُعِـمٍّ فأَنْـمِـهِ الّـلهُـمَّ فِيمـا تَنْـمـي

رد حليمة له إلى أمه
صلى الله عليه وسلم

وأخبار إرضاع حليمة له شهيرة ، ثم ردته حليمة إلى أمه بعد خمس سنين ويومين من مولده ، وذلك سنة ستٍّ من عام الفيل. ولما بلغ ستَّ سنين خرجت به أمه إلى أخواله بني عدي بن النجار بالمدينة تزورهم ،

ومعه أم أيمن ، فنزلت به دار التبابعة ، فأقامت عندهم شهراً ، فكان ﷺ يذكر أموراً كانت في مقامه ذلك ، ونظر إلى الدار ، فقال: ها هنا نزلت بي أمي ، وأحسنتُ العوم في بئر بني عدي بن النجار ، وكان قوم من اليهود يختلفون ، ينظرون إلي ، فقالت أم أيمن: سمعت أحدهم يقول: هو نبي هذه الأمة ، وهذه دار هجرته ، فوعيت ذلك كله من كلامهم ، ثم رجعت به أمه إلى مكة ، فلما كانت بالأبواء توفيت.

موت أمه آمنة
صلى الله تعالى عليه وسلم

قالت أسماء بنت رهم عن أمها: شهدت آمنة أمَّ النبي ﷺ في علتها التي ماتت فيها ، ومحمد ﷺ عند رأسها، وهو ابن خمس سنين ، فنظرت إلى وجهه فقالت:

بارَكَ ربِّي فيكَ مِن غُلام ... يا ابنَ الذي من حَوْمَةِ الحمام
تبايعوا في الملك النعام ... فُودِيَ غَداةَ الضَّربِ بالسِّهامِ
بمائةٍ مِن إبلٍ سَوَام ... إن صَحَّ ما أبصرتُ في المَنَامِ
فأنت مبعوثٌ إلى الأنامِ ... مِن عند ذي الجلالِ والإكرامِ
تُبعَثُ في الحِلِّ وفي الحَرام ... تُبْعَثُ في التحقيق والإسلام
دين أبيكَ البَرِّ إبراهامِ ... فالله أنهاك عن الأَصْنامِ
أن لا تواليها مع الأقوامِ

ثم قالت: كُلُّ حي ميت ، وكُلُّ جديد بال ، وكُلُّ كثير يفنى ، وأنا ميتة ، وذكري باق ، وقد تركتُ خيراً ، وولدتُ طهراً ، ثم ماتت ، وكنا نسمع نوحَ الجن عليها ، فحفظنا من ذلك هذه الأبيات:

نَبْكي الفَتاةَ البَرَّةَ الأمينَهْ ... ذاتَ الجَمال العَفَّةَ الرَّزينَهْ
زوجَةَ عبدِ الله والقَرينَهْ ... أم نبيِّ اللهِ ذي السَّكينَهْ
وصاحِبِ المنبرِ بالمَدينَهْ ... صارت لدى حَضرتها رَهينَهْ

وكونها ماتت بالأبواء ، وهو ابنُ ست سنين ، هو الصحيح ، وقيل: ماتت وهو ابن أربع ، وقيل خمس ، وقيل: سبع ، وقيل: تسع ، وقيل: اثنتي عشرة سنة وشهر ، أو عشرة أيام ، وقيل: ماتت بشعب أبي ذئب بالحَجُون. وفي «القاموس»: ودار رائعة بمكة فيها مدفن آمنة أم النبي ﷺ.

وكانت أمُّ أيمن بَركةُ دايتَه ، وحاضِنته بعد موت أمه ، وكان عليه الصلاة والسلام يقول لها: أنتِ أُمي بعد أمي.

موت جده عبدالمطلب

ثم لما بلغ ثمان سنين أو ثمانياً وشهراً وعشرة أيام ، أو تسع سنين ، أو عشراً على الخلاف ، مات جده عبدالمطلب ، وله عشرة ومائة سنة ، وقيل: مائة وأربعون سنة. وكفله بعده أبو طالب ، واسمه عبد مناف ، وكان عبدالمطلب قد أوصاه بذلك ، لكونه شقيق عبدالله ، فصار في حجر عمه أبي طالب ، وكان يحبه حتى إذا بلغ خمس عشرة سنة انفرد بنفسه.

قصة بحيرى الراهب

ولما بلغ ﷺ اثنتي عشرة سنة ، أو ثلاث عشرة ، خرج في تجارة مع عمه أبي طالب ، حتى بلغ بصرى ، فرآه بحيرى الراهب - بفتح الموحدة ، وكسر الحاء ، بعدها ياء ، ثم راء وألف مقصورة - واسمه جرجيس ، فعرفه بصفته ، فقال: وهو آخذ بيده: هذا سيدُ العالمين ، هذا يبعثه الله رحمةً للعالمين ، فقيل له: فما علمك بذلك؟ قال: إنَّكم حين أشرفتم به من العقبة ، لم يبق شجر ولا حجرٌ إلا وخر ساجداً ، ولا يسجدان إلا لنبي ، وإني أعرفُه بخاتم النبوة في أسفَل من غُضرُوف كتفه مثلَ التفاحة ، وإنا نجده في كتبنا ، وسأل أبا طالب أن يردَّه خوفاً عليه من اليهود. والحديث أخرجه ابن أبي شيبة وفيه: أنه ، عليه الصلاة والسلام ، أقبل وعليه غمامة تظله ، وعند البيهقي ، وأبي نعيم: أن بحيرى رآه وهو في صومعته في الركب حين أقبلوا ، وغمامة بيضاء تظله من بين القوم ، ثم أقبلوا حتى نزلوا بظل شجرة قريباً منه ، فنظر إلى الغمامة حين أظلت

الشجرة ، وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ ، حتى استظل تحتها . . . . . الحديث. وفيه أن بحيرى قام واحتضنه ، وأنه جعل يسأله عن أشياء من حاله ، من نومه ، وهيئته ، وأموره ، ورسول الله ﷺ يخبره ، فيوافق ذلك ما عنده من صفته ، ورأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده. وخرج الترمذي وحسنه ، والحاكم وصححه: أن في هذه السفرة أقبل سبعة من الروم يقصِدُون قتله ﷺ ، فاستقبلهم بحيرى؛ فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: إن هذا النبي خارج في هذا الشهر ، ولم يبق طريق إلا بعث إليها بأناس ، قال: أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه ، هل يستطيع أحد من الناس رده؟ قالوا: لا ، قال: فبايعوا ، وأقاموا معه ، وردَّه أبو طالب ، وبعث معه أبو بكر بلالا. وضعف الذهبي هذا الحديث ، لقوله في آخره: «وبعث معه أبوبكر بلالا ، فإن أبا بكر إذ ذاك لم يكن متأهلاً ولا اشترى بلالا. قال ابن حجر في «الإصابة»: الحديث رجاله ثقات: وليس فيه ما ينكر سوى هذه اللفظة ، فتحمل على أنها مدرجة مقتطعة من حديث آخر ، وهماً من أحد رواته.

قصة نسطورا الراهب

ثم خرج ﷺ ، ومعه ميسرة ، غلام خديجة ابنة خويلد بن أسد ، في تجارة لها ، حتى بلغ سوق بصرى ، أو سوق حباشة ، وله إذ ذاك خمس وعشرون سنة ، لأربع عشرة ليلة ، بقيت من ذي الحجة ، فنزل تحت ظل شجرة ، فقال نسطورا الراهب: ما نزل تحت ظل هذه الشجرة إلا نبي ، وفي رواية: بعد عيسى. وكان ميسرة يرى في الهاجرة ملكين يُظلانه من الشمس ، ولما رجعوا إلى مكة في ساعة الظهيرة ، وخديجة في عِلِّيَةٍ لها ، فرأت رسول الله ﷺ ، وهو على بعيره ، وملكان يُظللان عليه. أخرجه أبو نعيم.

وتزوج ﷺ بعد ذلك بشهرين وخمسة وعشرين يوماً ـ وقيل: سنة إحدى وعشرين ، وقيل: سنة ثلاثين ـ خديجة ، وكانت تُدعى في الجاهلية

بالطاهرة. وقد استوفينا ترجمتها ، وتزويجه بها في كتاب بدء الوحي من هذا الكتاب ، ثم شهد رسول الله ، ﷺ ، بنيان الكعبة ، وتراضت قريش بحكمه في موضع الحجر بعد ذلك بعشر سنين ، وذلك سنة ثلاث وثلاثين ، وقال محمد بن جبير: بنيت الكعبة على رأس خمس وعشرين من عام الفيل ، وقيل: بل كان بين بنيان الكعبة ، ومبعث النبي ﷺ خمس سنين.

وقت البعثة

ولما بلغ رسول الله ﷺ أربعين سنة ، وقيل: وأربعين يوماً ، وقيل: وعشرة أيام ، وقيل: وشهرين ، يوم الاثنين ، لسبع عشرة ، خلت من رمضان ، وقيل: لسبع ، وقيل: لأربع وعشرين ليلة. وقال ابن عبد البر: يوم الاثنين ، لثمان من ربيع الأول ، سنة إحدى وأربعين من الفيل. وقيل: في أول ربيع ، بعثه الله تعالى رحمة للعالمين ، ورسولاً إلى كافة الناس أجمعين ، وقولُ بعض العلماء تنبأه الله تعالى ، وهو ابن أربعين ، المراد به بعثه وإرساله للناس ، لا أصل النبوة ، لأنه ، ﷺ ، كان نبياً وآدم منجدلٌ في طينته ، وولد نبياً ، وقد حررنا ذلك في أول «الفتوحات الربانية».

ولما أوحى الله إليه ، عليه الصلاة والسلام ، أسرَّ أمره ثلاث سنين أو نحوها. ثم أمره عز وجل بإظهار دينه ، والدعاء إليه ، فأظهره بعد ثلاث سنين من مبعثه. وأخرج ابن عبدالبر ، وأحمد بن حنبل عن الشعبي قال: أُنزلت عليه النبوة ، وهو ابن أربعين سنة ، فقرن بنبوته إسرافيل ، عليه السلام ، فكان يعلمه الكلمة والشيء ، ولم ينزل عليه القرآن على لسانه ، فلما مضت ثلاث سنين ، قرن بنبوته ، ﷺ ، جبريل ، عليه الصلاة والسلام ، فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة.

ولما دعا قومه إلى دين الله تعالى لم يبعدوا منه ، ولم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم ، وعابها ، وكان ذلك في سنة أربع ، فأجمعوا على خلافه ، وعداوته إلا من عصمه الله تعالى منهم بالإسلام.

وحَدَبَ عليه عَمُّه أبو طالب ، ومنعه ، وقام دونه ، واشتدت العداوةُ ، وتذامرت قريش على تعذيب من أسلم ، وافتتانه ، ومنع الله رسوله بعمه أبي طالب ، وبني هاشم ، غير أبي لهب ، وبني المطلب؛ واجتمعت قريش ، وطلبت من أبي طالب أن يسلم لهم النبي ، ﷺ ، فقال لهم: حين تروح الإبل ، فإن حنت ناقة على غير فصيلها ، دفعته لكم ، وقال:

واللهِ لَنْ يَصِلوا إليكَ بجَمعهِمْ حَتى أُوَسَّدَ في التُّراب دَفينَا
فاصْدَعْ بأمرِكَ ما عليكَ غَضاضةٌ وابشِرْ وَقَرَّ بذاكَ مِنْكَ عُيونا
ودَعَوْتَني وزَعَمْتَ أنك ناصحي ولَقد صَدَقْتَ وكُنْتَ ثَمَّ أمينا
وعَرَضْتَ ديناً لا مَحالَةَ أنَّه مِنْ خَيرِ أديانِ البَرِيَّةِ دِينا

وحاصرت قريش النبي ، ﷺ ، وأهل بيته بني هاشم ، ومعهم بنو المطلب في الشعب بعد المبعث لست سنين ، فمكثوا في ذلك الحصار ثلاث سنين ، وخرجوا منه في أول سنة خمسين من عام الفيل. وتوفي أبو طالب بعد ذلك بستة أشهر ، وتوفيت خديجةُ بعده بثلاثة أيام ، وقيل: بسبعة ، وقيل: بشهر وخمسة أيام ، وتوفي أبو طالب ، وهو ابن بضع وثمانين سنة ، وتوفيت خديجة وهي بنت خمس وستين سنة؛ فكان مكثُها مع النبي ﷺ خمساً وعشرين سنة. وتوالت على النبي ، ﷺ ، مصيبتان بوفاة عمه ، ووفاة خديجة. وقد استوفينا في كتاب الاستسقاء ما قيل في أبي طالب ، حيث جاء ذكره هناك وكان أبو طالب قد أسلم ولده علياً إلى رسول الله ، ﷺ ، وذلك أن قريشاً أصابتهم أزمةٌ شديدة ، وكان أبو طالب ذا عيال كثير ، فقال النبي ، عليه الصلاة والسلام ، لِعمه العباس ، وكان من أيسر بني هاشم: يا عباس ، إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، فانطلق بنا ، فلنخفف عنه من عياله ، فقال: نَعَمْ ، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب وقالا له: إنا نُريد أن نخفف من عيالك حتَّى يكشِفَ الله عن الناس ما هم فيه ، فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما ، فأخذ رسول الله ، ﷺ ، علياً ، وضمه إليه ، وأخذ العباس جعفراً وضمه إليه ، ولم يزل علي

مع رسول الله ، ﷺ ، إلى أن بعثه الله تعالى وآمن به ، وإلى أن زوجه ابنته ، فاطمة الزهراء ، ولم تمت خديجة فيما ذكره ابن إسحاق وغيره إلا بعد الإسراء ، وبعد أن صلت الفريضة مع رسول الله ، ﷺ .

ولما توفي أبو طالب وخديجة ، خَرَجَ رسول الله ﷺ إلى الطائف ، ومعه زيدُ بنُ حارثة ، يطلب منهم المَنَعَةَ ، فأقام عندهم شهراً ، ولم يجد فيهم خيراً ، ثم رجع إلى مكة في جوار المطعم بن عدي ، وكان ذلك سنة إحدى وخمسين من الفيل . وكان بين الإسراء واليوم الذي هاجر فيه النبيُّ ، ﷺ ، إلى المدينة سنة وشهران ، وكان مكثُه ، ﷺ ، بمكة بعد مبعثه صابراً على أذى قريش ، وتكذيبهم له ، داعياً إلى الله تعالى إلى أن أُذِنَ له في الهجرة إلى المدينة ، وذلك بعد أن بايعه وجُوْهُ الأوسِ والخزرج ، بالعقبة ، على أن يُؤووه وينصروه ، حتى يُبَلِّغَ عن الله تعالى رسالته ، ويُقاتِلَ من عانده ، وخالفه ، فهاجر إلى المدينة ، وكانت بيعة العقبة أواسط أيام التشريق في ذي الحجة .

مخرجه إلى المدينة

وكان مخرج النبي ﷺ إلى المدينة بعد العَقَبَة بشهرين وليال ، كما قال ابن إسحاق ، وابن عبدالبر ، وقال الحاكم : بثلاثة أشهر أو قريباً منها ، وخرج لهلال ربيع الأول من مكة ، وقدم المدينة لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول ، قال في «الفتح» : وعلى هذا خروجه كان يوم الخميس ، وقال الحاكم : إن خروجه كان يوم الاثنين ، ودخوله المدينة كان يوم الاثنين . ويجمع بينهما بأن خروجه من مكة كان يوم الخميس ، وخروجه من الغار كان ليلة الاثنين ، لأنه أقام فيه ثلاث ليال ، ليلة الجمعة ، وليلة السبت ، وليلة الأحد ، وخرج أثناء ليلة الاثنين ، وأمره جبريل أن يستصحِبَ معه أبا بكر ، ولم يرافقه غيره من أصحابه فيها ، وكان يخدمهما في ذلك السفر عامرُ بن فهيرة . وحديث هجرتهما أخرجه البخاريُّ وغيره .

مكثه بمكة بعد البعثة

وكان مكثه بمكة بعد أن بعثه الله تعالى ثلاث عشرة سنة ، وقيل : عشر سنين ، وقيل : خمس عشرة سنة ، والأول أشهر قال صرمة :

ثَوى في قُريشٍ بِضْعَ عَشرة حِجَةً يُذَكِّرُ لَو يلْقى صَديقاً مُوافياً

قدومه المدينة

وكان عند هجرته ابن ثلاث وخمسين سنة ، وقدم المدينة يوم الاثنين على الصحيح قريباً من نصف النهار في الضحى الأعلى ، لاثنتي عشرة ليلة خَلَتْ من ربيع الأول ، وكان عامر بن فُهيرة مولى أبي بكر الصديق يرعى عليهما مِنْحَةً مِن غنم ، فيُريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء لياليهما في الغار ، فيبيتان على رِسْلٍ ـ وهو لبن ـ منحتهما ، وكان أبو بكر ، رضي الله تعالى عنه ، استأجر عبدالله بن الأُرَيْقط دليلاً ، وهو على دين كفار قريش ، ودفعا إليه راحلتيهما ، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال ، فأتاهما براحلتيهما صُبْحَ ثلاث ، ولم يُعرف له إسلام ، وانطلق معهم الدليل هذا وعامر بن فُهيرة ، وكان عبدالله بن أبي بكر يبيت عندهما لياليهما في الغار ، ويأتيهما بما تتحدث به كفار قريش ، ويُدْلِجُ من عندهما بِسَحَرٍ ، ويكون كبائت بمكة ، ونزلا عند قدومهما المدينة على أبي قَيْس كُلثوم بن الهِدْم بن امرىء القيس في حديث عمرو بن عوف ، فأقاما عنده أربعة أيام ، وقيل : بل كان نزوله في بني عمرو بن عوف على أبي خَيْثَمة ، والأول أكثر ، فأقام رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف يوم الاثنين ، والثلاثاء ، والخميس ، وأسس مسجدهم ، وخرج يوم الجمعة منتقلاً إلى المدينة ، حتى مر ببني سالم لوقت الجمعة ، فصلاها بهم في بطن الوادي ، وهي أول جمعة جمعها رسول الله ﷺ بالمدينة ، ثم ركب ناقته لا يحركها ، ويقول : دعوها فإنها مأمورة ، فمشت حتى بركت في موضع مسجده الذي أنزله الله فيه في بني النجار ، فنزل عشية الجمعة سنة ثلاث وخمسين من عام الفيل ، وأَرَّخَ التاريخ من مَقْدِمه

المدينة في زمان عمر بن الخطاب ، رضي الله تعالى عنه ، آخى بين المهاجرين والأنصار بعد مقدمه بخمسة أشهر ، ونزل عند أبي أيوب الأنصاري ، ولم يزل عنده حتى بنى مسجده ومساكنه ، ثم انتقل عنه ، وذلك في السنة الأولى من الهجرة .

قيامه بالمدينة

وأقام بالمدينة عشر سنين ، وبدأ مرضه الذي مات منه يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من صفر سنة إحدى عشرة في بيت مَيْمونة ، ثم انتقل حين اشتد وجعُه إلى بيت عائشة ، وقُبِضَ عليه الصلاة والسلام يوم الاثنين ضحى ، في الوقت الذي دَخَلَ فيه المدينة ، لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة ، ودفن يوم الثلاثاء حين زاغت الشمس ، وقيل: بل دُفن ليلة الأربعاء.

عدد غزواته وسراياه صلى الله عليه وسلم

وكانت غزواته ﷺ مدة إقامته بالمدينة ستّاً وعشرين ، وقيل: سبعاً وعشرين ، قاتل في تسع منها بنفسه الشريفة. وسراياه وبعوثه سبعة وأربعون. وأول مغازيه ﷺ الأبواء ، وقيل: إن ودّان مرادفة لها ، وقيل: متغايرتان ، وأول بعوثه بعث حمزة بن عبدالمطلب بعثه إلى سيف البحر في ثلاثين راكباً ، يعترض عيراً لقريش ، فكان أول من غزا في سبيل الله ، وأول من عقدت له زاية في الإسلام. ثم سرية عُبَيْدة بن الحارث كانت قبل سرية حمزة ، وقيل إنهما كانتا معه.

واعتمر ﷺ ثلاث عمر وفي قول من جعله في حجته قارناً: أربع عمر ، وافتُرِضَ عليه الحج وسائر الفرائض بالمدينة إلا الصلاة ، فإنها افترضت عليه ليلة الإسراء ، وهو بمكة ، ولم يَحُجَّ ﷺ بالمدينة غير حجته الواحدة ، حجة الوداع ، وذلك في سنة عشر من الهجرة. وحرم عليه جميع ما حرم بالمدينة المنورة.

سِنه عليه الصلاة والسلام

واختلف في سِنه يوم قُبِضَ ، فقيل: ثلاث وستون ، وهو الصحيح ، وقيل: ستون ، وقيل: خمس وستون.

أزواجـــه
عليه الصلاة والسلام

وتزوج ﷺ عدداً كثيراً من النساء ، وخُص من ذلك دون أمته بجمع أكثر من أربع ، وأُحِلَ له منهن ما شاء ، والمُجمع عليه من نسائه إحدى عشرة امرأة ، جمعها بعض العلماء في بيت مشيراً بالحرف الأول من كل كلمة إلى الحرف الأول من اسم إحداهن ، مُرَتباً لهن على ترتيب تزويجه عليه الصلاة والسلام بهن فقال:

خَليليَّ سَبَى عَقْلي حُلى زَيْنِ هَالَةٍ زَهَا جَفْنها رَمْزاً صَحيحاً مُهَذَّبا

الخاء لخديجة بنت خويلد ، والسين لسَوْدة بنت زَمْعة ، والعين لعائشة بنت أبي بكر الصديق ، والحاء لحَفْصة بنت عمر بن الخطاب ، والزاي الأولى لزينب بنت خُزَيْمة ، والهاء لهند بنت أبي أمية ، والزاي الثانية لزينب بنت جحش ، والجيم لجُوَيْرية بنت الحارث المُصْطَلِقيَّة ، والراء لرَمْلة بنت أبي سفيان ، والصاد لصَفِيَّة بنت حُيَيّ بن أخطب ، والميم لمَيْمونة بنت الحارث الهلالية.

ولم يمت في حياته ﷺ منهن سوى اثنتين ، خديجة بنت خُويلد ، وزينب بنت خُزَيْمة ، وتُوفي عليه الصلاة والسلام عن تسع نسوة جمعها القائل في قوله:

تُوفي رسولُ اللهِ عن تِسْعِ نِسْوَةٍ إليْهنَّ تُعْزى المُكْرماتُ وتُنسَبُ
فعائشةٌ وحَفْصَةٌ ثُمَّ سَوْدَةٌ ورَمْلةٌ تتْلوهُنَّ هِنْدٌ وزَينَبُ
جُوَيْريَّةٌ مَيْمونَةٌ وصَفِيَّةٌ فخُذ هؤلاء نَظْمُهُنَ مُهَذَّبُ

ويأتي إن شاء الله تعالى تعريف كُلٍّ واحدة منهن عند ذكرها في

صحيح البخاري ، ست منهن من قريش ، وواحدة من بني إسرائيل من وَلَدِ هارون ، عليه الصلاة والسلام ، وأربع من سائر العرب . هذه الإحدى عشرة هي المُجْمَعُ عليها ، وأما المختلف فيهن ممن ابْتَنَى بها وفارَقَها ، أو عَقَدَ عليها ولم يَدْخل بها ، أو خَطَبَها ولم يَتِمَّ له العقد عليها ، فقد اختلف فيهن ، وفي أسباب فراقهن اختلافاً كثيراً يوجب التوقف عن القطع بالصحة في واحدة منهن ، وإذا جاء في البخاري إيماءٌ لواحدة منهن عرفناها إن شاء الله تعالى .

أولاده عليه الصلاة والسلام

وأما أولاده عليه الصلاة والسلام ، فأربع بنات بلا خِلاف ، زينب وهي أكبرهن ، ورُقَيَّة ، وأم كلثوم ، وفاطمة الزَّهراء ، ويأتي تعريف كل واحدة منهن إن شاء الله تعالى ، عند ذكر البخاري لها ولو بالإيماء والإشارة .

وله ﷺ من الذكور ثلاثة على الصحيح : القاسم وهو أكبرُ ولده ، وبه كُنِيَ عليه الصلاة والسلام ، وعبدالله ويُلقب بالطيب ، والطاهر ، لأنه ولد بعد المبعث ، والثالث إبراهيم ، وقيل : أربعة ، القاسم ، والطيب ، وعبدالله وهو الطاهر ، وإبراهيم . وجميع ولده من خديجة إلا إبراهيم ، فإنه من مارية القِبْطِيّة . ونظم بعضُهم أولاده مُرَتباً لهم على الصحيح في الولادة فقال :

فأَوَّلُ وُلْدِ المُصطفى قاسِمُ الرِّضا ... به كُنِّيَ المُختارُ فافْهَم وحَصِّلا
وزَينَبُ تَتلوهُ رُقَيَّةُ بَعْدها ... كذا أُمُّ كُلثومٍ تُعَدُّ على الولا
وفاطِمَةُ الزَّهراءُ خَتْمُ بناتِهِ ... بالاسلامِ عبْدالله جاء مُكَمِّلا
وكُلُّهُمُ كانوا لَهُ مِنْ خَديجةٍ ... وقَدْ جاءَ إبراهيمُ في طَيْبَةٍ تَلا
مِنَ المَرأةِ الحَسناءِ مارِيةٍ فقُلْ ... علَيْهِم سَلَام اللهِ مِسْكاً ومَنْدَلا

أسماؤه عليه الصلاة والسلام

وكان له ﷺ أسماء وصفات ، جاءت عنه في أحاديث شتى ، بأسانيد صحاح وحسان .

ففي صحيح البخاري عن جُبَيْر بن مُطْعِم ، قال رسول الله ﷺ : «لي خمسة أسماء ، أنا محمد وأحمد ، وأنا الماحِي الذي يمحو الله بيَ الكفر ، وأنا الحاشِر الذي يُحشر الناس على قدمي وأنا العاقِب» .

وفي «فتح الباري» عن ابن دِحية ، قال : أسماء النبي ﷺ عدد أسماء الله الحسنى تسعة وتسعون اسماً ، قال : ولو بحث باحث عنها لبلغت ثلاث مئة اسم .

وقال ابن العربي في «شرح الترمذي» عن بعض الصوفية : إن لله ألف اسم ، ولرسوله ألف اسم ، والذي يظهر في اقتصاره على الخمسة المذكورة في الحديث أنه أراد أن لي خمسة أسماء اختص بها ، لم يُسَم بها أحد قبلي ، أو معظمة ، أو مشهورة في الأمم الماضية ، لا أنه أراد الحصر فيها .

قال عياض : حمى الله هذه الأسماء أن يُسمى بها أحدٌ قبله ، وإنما تسمَّى بعض العرب محمداً قُربَ ميلاده لما سمعوا من الكهان والأحبار أن نبياً سيُبعث في ذلك الزمان ، يسمى محمداً ، فرجوا أن يكونوا هو ، فسموا أبناءهم بذلك ، قال : وهم ستة لاسابع لهم ، وتعقبه في «فتح الباري» وأوصلهم إلى خمسة عشر نفساً ، فراجعه إن شئت .

معنى محمد

ومحمد اسم مفعول من باب التَّفْعيل ، منقول من صفة الحمد ، وهو بمعنى محمود ، وفيه مبالغة . وأخرج البخاري في «التاريخ الصغير» عن علي بن زيد قال : كان أبو طالب ، يقول :

وشَقَّ لهُ مِن اسْمِهِ لَيُجِلَّهُ فَذُو العَرْشِ مَحمودٌ وهذا مُحَمَّدُ

والمحمد: الذي حُمِدَ مرة بعد مرة كالممُدَّح ، قال الأَعشى:

إلَـيكَ ـ أَبـيْتَ الَّـلعْنَ ـ كانَ وجِيفُهـا إلى المـاجِدِ القَوْمِ الجَوَادِ المُحَمَّدِ

أيْ: الذي حُمِدَ مرة بعد مرة أو الذي تكاملت فيه الخِصال المحمودة.

قال عِياض: كان رسول الله ﷺ أحمد قبل أن يكون محمداً ، كما وقع في الوجود ، لأن تسميته أحمد وقعت في الكتب السالفة ، وتسميته محمداً وقعت في القرآن العظيم ، وذلك أنه حَمِدَ ربه قبل أن يَحمده الناس ، وكذلك في الآخرة يحمد ربه ، فَيُشَفِّعُهُ ، فيَحْمَدُه الناس ، وقد خُصَّ بسورة الحمد ، ويلائمه الحمد ، وبالمقام المحمود ، وشُرِعَ له الحمد بعد الأكل ، وبعد الشرب ، وبعد الدعاء ، وبعد القدوم من السفر ، وسميت أمته الحمادين ، فجمعت له معاني الحمد وأنواعه ﷺ.

قلت: قول عِياض: إنه عليه الصلاة والسلام كان أحمد قبل أن يكون محمداً ، غير ظاهر بالنسبة إلى ما في الكتب السالفة والقرآن ، لأن ما في الجميع كلام الله تعالى ، وهو قديم أزلي ، فكان من حقه أن يجعل من ذلك بالنسبة إلى الظهور للبشر ، لا بالنسبة للمعنى القديم ، والله تعالى أعلم.

معنى أحمد

وأما أحمد ، فهو من باب التفضيل ، وقيل: سمي أحمد لأنه علم منقول من صفة ، وهي أفعل التفضيل ، ومعناه: أحمد الحامدين ، وسبب ذلك ما ثَبَتَ في «الصحيح» أنه يُفتح عليه في المقام المحمود بمحامد لم يُفْتح بها على أحد قبله ، وقيل: الأنبياءُ حمّادون ، وهو أحمدهم ، أي أكثرهم حمداً ، أو أعظمهم في صفة الحمد. وما مر من كَوْن «وشق له من اسمه ليجله» من قول أبي طالب خلاف ما ذكره في «المواهب اللدنية» من كونه لحسان بن ثابت ، وذكر قبله بيتين:

أَغَـرُّ عَلَيه لِلنُّـبُـوَّةِ خاتَـمٌ مِنَ الله مِنْ نُورٍ يَلُوحُ وَيَشْـهَـدُ
وضَـمَّ الإلـه اسمَ النَّبيِّ إلى اسمِـهِ إذا قال في الخَمْسِ المؤذِّنُ أَشْهَـدُ

والذي يظهر أنه من شعر حسان، لا من شعر أبي طالب، اللهم إلا أن يكون حسان ضمنه في شعره، ولم يظهر ذلك من نَسْجه.

خاتَم النُّبُوّة

ومن أعلام نبوته خاتم النبوة، ففي صحيح البخاري عن السّائب بن يزيد، قال: ذهبت بي خالتي إلى رسول الله، ﷺ، فقالت: يا رسول الله! إن ابن أُختي وَقَـعَ، فمسح رأسي، ودعا لي بالبركة، وتَوَضَّأَ، فشربت من وضُوئه، ثم قمت خلفَ ظهره، فنظرت إلى خاتَم النبوة بين كتفيه.

قال ابراهيم بن حمزة: مثل زِرِّ الحَجَلة، والصحيح أن المراد بالحَجَلة هنا الشكلة التي تعلق على السرير، ويزين بها للعريس كالبشخانات، والزِّر على هذا حقيقة، لأنها تكون ذات أزرار وعُرى.

وقد وردت في صفة خاتَم النبوة أحاديث متقاربة، منها عند مسلم عن جابر بن سَمُرة: كأنه بَيْضَةُ حمامة، وفيه أيضاً: جمع عليه خِيلان كأنها الثآليلُ السود عند نُغْض كتفه، ورُوي: غُضروفِ كتفه اليسرى، وفي «صحيح» الحاكم: شعرٌ مجتمع، وفي «البيهقي»: مثل السِّلعة. وفي «الشمائل»: بَضْعة ناشِزة. وفي «الترمذي»، و «دلائل» البيهقي: كالتفاحة. وفي «الرَّوْض» كأنها المِحْجمة القابضة على اللحم.

قال في «الفتح»: وما ورد من أن الخاتم كان كأثر المِحْجم، أو كالشّامَة السوداء أو الخضراء، مكتوب عليها محمد رسول الله، أو سر فإنك المنصور لم يثبُت منه شيء، ولا يُغْتَرُّ بما وقع من تصحيح ابن حبان لذلك، فإنه غفلةٌ منه.

قال القُرْطُبيُّ: الأحاديث الثابتة دالة على أن خاتم النبوة كان شيئاً بارزاً أحمر، عند كتفه الأيسر إذا قلل قدر بيضة الحمامة، وإذا كبر جمع

الكف ، وقال القاضي عِياض : وهذه الروايات متقاربة متفرقة متفقة على أنه شاخِص في جسده قدر بَيْضة الحمامة وزِرِّ الحَجَلة . وأما رواية جمع الكف فظاهرها المخالفة ، فَتُتَأَوَّل على وفق الروايات الكثيرة ، ويكون معناه على هيئة جمع الكف ، لكنه أصغر منه في قدر بيضة الحمامة .

وهذا الخاتم هو أثر ختم الملكين بين كتفيه لما شقا صدره الشريف ، وخاطباه ، وعلى هذا يكون وضع بعد ولادته ، وهو الصحيح من القولين ، ويدل عليه حديث أبي ذَرٍّ عند البَزّار وغيره ، قال : قلت : يا رسول الله ! كيف علمت أنك نبي . . . . إلخ ، وفيه : «ثم قال أحدهما لصاحبه : خِطْ بطنه فخاط بطني ، وجعل الخاتم بين كتفي ، كما هو الآن ، ووليا عني» . وحديث عائشة عند أبي داود الطَّيالِسيّ ، والحارث بن أبي أسامة ، و «الدلائل» لأبي نُعيم : أن جبريل وميكائيل لما تراءيا له عند المَبْعث ، هبط جبريل ، فسلقني لحلاوة القَفا ، ثم شق عن قلبي فاستخرجه ، فغسله في طَسْت من ذهب بماء زَمْزم ، ثم أعاده مكانه ، ثم لأَمَهُ ، ثم ألقاني ، وختم في ظهري حتى وجدت مس الخاتم في قلبي ، وقال : اقرأ . . . الحديث ، وقيل وضع عليه عند الولادة ؛ فعند أبي نعيم في «الدلائل» أنه ﷺ لما ولد ذكرت أمه أن الملك غمسه في الماء والذي أنبعه ثلاث غمسات، ثم أخرج سرقَة من حرير أبيض، فإذا فيها خاتم ، فضرب على كتفه كالبيضة المكنونة تضيء كالزهرة ، وقيل : ولد به ، نقله أبو الفتح اليَعْمُري ، والأولى أثبت ، قال العلماء: السر في كونه بين الكتفين هو أن القلب في تلك الجهة وقد ورد في خبر مقطوع أخرجه ابن عبد البر ، بسند قوي ، عن عمر بن عبد العزيز وصاحبه الفائق في «مصنفه» أن رجلاً يسأل ربه أن يريه موضع الشيطان ، فرأى الشيطان في صورة ضفدع عند نُغْض كتفه الأيسر ، حذاء قلبه ، له خرطوم كالبعوضة . وعند أبي يَعْلى ، وابن عَدِيّ عن أنس مرفوعاً : «إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم .» الحديث ، وأورده أبو بكر في كتاب «الشريعة» أن عيسى بن مَرْيم ، عليه الصلاة والسلام ، سأل ربه أن يريه موضع الشيطان

من ابن آدم ، فإذا برأسه مثل الحية ، واضع رأسه على ثمرة القلب ، فإذا ذكر العبد ربه خَنَس ، وإذا غَفَلَ وسوس .

واختلف هل خاتم النبوة خاصٌ بنبينا ﷺ؟ أو لكل نبي خاتم ؟ فقد أخرج الحاكم في «المستدرك» عن وهب بن مُنَبِّه . قال: لم يبعث الله نبياً إلا وقد كان عليه شامات النبوة في يده اليمنى إلا أن يكون نبينا ﷺ فإن شامة النبوة كانت بين كتفيه.

وعلى هذا يكون وضع الخاتمُ بين كتفيه بإزاء قلبه مما اختص به عن سائر الأنبياء.

تنبيـه: قد أكثر الناس فيمن أدخله في قبره ، وفيمن صلّـى عليه ، والأصح أن الذي صلّى عليه عليٌّ ، والعباس وبنو هاشم ، ثم خرجوا ، ثم دخل المهاجرون ، ثم الأنصار ، ثم الناس يصلون عليه أفذاذاً ، لا يؤمهم أحد ، ثم النساء والغلمان. والأصح أيضاً أن الذي نزل في قبره ، عليه الصلاة والسلام ، عمه العباس ومعه عليّ وقُثَم والفضل ابنا العباس ، ويقال كان أوس بن خَوْلي ، وأسامة بن زيد معهم ، وكان آخرهم خروجاً من القبر قثم بـن العباس ، كان آخر الناس عهداً برسول الله ﷺ. قال ابن عبدالبر: وقد ذُكر عن المُغيرة بن شُعبة في ذلك خبر لا يصح . أنكره أهل العلم ، ودفعوه يريد ما روي من أنه أسقط خاتمه في القبر الشريف وطلب أخذه ، فدخل وأخذه قاصداً أن يكون آخر الناس عهداً به ﷺ ، وألحد له عليه الصلاة والسلام ، وبني في قبره اللَّبِنَ ، يقال: تسع لبنات ، وطرح في قبره سمل قطيفه كان يلبسها ، فلما فرغوا من وضع اللبن أخرجوها ، وهالوا التراب على لحده. وقبره عليه الصلاة والسلام ، قيل: مسطح ، وقيل: مُسَنَّم ، ورش الماء عليه رشّاً.

واعلم أن فضائله عليه الصلاة والسلام ، وأعلام نبوته قد وضع العلماء فيها ، وجمع كل منهم ما انتهت روايته ، ومطالعته إليه ، وهي أكثر من أن تُحصى ، وقد أجرينا من ذكره ها هنا ﷺ لُمَعاً يحسن الوقوف عليها ،

والمذاكرة بها تبركاً بذكره في أوائل الكتاب ، والله الموفق للصواب ، وإليه المرجع والمآب. ولما أنهيت هذه النُّبذة اليسيرة من الشمائل النبوية ، أردت أن آتِيَ بشيء من تعريف البخاري ، لأن الكتاب في تعريف رجال «صحيحه» ، وأول ما يبدأ به تعريف صاحب الكتاب فأقول:

تعريف البُخاري

البُخَارِيُّ: هو أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المُغيرة ابن بَرْدِزْبَهْ ـ بفتح الباء وسكون الراء وكسر الدال وسكون الزاي وفتح الباء ثم هاء ساكنة ـ الجُعْفِيُّ ومعناه بالفارسية الزراع ، كان بَرْدِزْبَه فارسيّاً على دين قومه ، ثم أسلم ولده المغيرة على يد اليمان الجُعْفِي ، وأتى بخارى ، فنسب إليه نسبة ولاء ، عملاً بمذهب من يرى أن من أسلم على يده شخص كان ولاؤه له ، وإنما قالوا له: الجعفيُّ لذلك. وأما ولده إبراهيم فلم أقف على شيء من أخباره.

ولد البُخاري يوم الجمعة بعد الصلاة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال سنة أربع وتسعين ومئة ببُخارى ، ومات أبوه وهو صغير ، ونشأ في حِجْر أمه ، ثم حجَّ مع أمه وأخيه أحمد ، وكان أسن منه ، سنة عشر ومئتين ، فأقام هو بمكة مجاوراً يطلب العلم ، ورجع أخوه أحمد إلى بخارى ومات بها.

وروى غُنجار في «تاريخ بُخارى» واللَّالَكائيُّ في «شرح السنة» في كرامات الأولياء ، أن محمد بن إسماعيل ذهبت عيناه في صغره ، فرأت والدته الخليل إبراهيم عليه السلام في المنام، فقال لها : يا هذه قد رد الله على ابنك بصره بكثرة دعائك ، فأصبح وقد رد الله عليه بصره.

وقال محمد بن أبي حاتِم ، وَرّاق البخاري: سمعت البخاري يقول: ألهمت حفظ الحديث وأنا في الكتاب ، قلت: وكم أتى عليك إذ ذاك؟

قال: عشر سنين أو أقل ، ثم خرجت من الكتاب فجعلت أختلف إلى الدَّاخِلِيّ ، فقال يوماً فيما كان يقرأ للناس: سفيان ، عن أبي الزُّبير ، عن إبراهيم ، فقلت: إن أبا الزُّبير لم يرو عن إبراهيم فانْتَهَرني ، فقلت له: ارجع إلى الأصل إن كان عندك ، فدَخَلَ ، فنظر فيه فَرَجَعَ ، فقال: كيف هو يا غلام؟ فقلت: هو الزُّبَيْر ، وهو ابن عَدِيّ عن إبراهيم ، فأخذ القلم ، وأصلح كتابه وقال لي: صدقت ، فقال له إنسان: ابن كم كنت حين رَدَدْتَ عليه؟ فقال: ابن إحدى عشرة سنة ، قال: ولما طَعنْت في ثاني عشرة صنفت كتاب «قضايا الصحابة والتابعين» ، ثم صنفت «التاريخ» في المدينة عند قبر النبي ﷺ وكنت أكتبه في الليالي المقمرة ، قال: وقَلَّ اسم في التاريخ إلا وله عندي قصة ، إلا أني لا أريد أن أُطَوِّل الكتاب.

وقال محمد بن أبي حاتم الورّاق عن البُخاري: كنت في مجلس الفريابي ، فقال: حدثنا سفيان ، عن أبي عُروة ، عن أبي الخَطّاب ، عن أبي حَمْزة ، فلم يعرف أحدٌ في المجلس مَنْ فوق سفيان ، فقلت لهم: أبو عروة هو مَعْمر بن راشد، وأبو خطاب: هو قَتادة بن دعامة، وأبو حمزة: هو أنس بن مالك، قال: وكان الثَّوْريُّ فعولاً لذلك، يعني المشهورين.

وقال حاشِد بن إسماعيل: كان البُخاري يختلف معنا إلى مشايخ البصرة ، وهو غلامٌ ، فلا يكتُبُ حتى أتى على ذلك أيام ، فلُمناه بعد ستة عشر يوماً ، فقال: قد أكثرتم عليّ فاعرضوا علي ما كَتَبْتُم ، فأخرجناه ، فزاد على خمسةَ عشر ألف حديث ، فقرأها كلَّها عن ظهرِ قلبٍ حتى جَعَلْنَا نُحْكِمُ كتبنا من حفظه.

وقال محمد بن الأزهر السِّجِسْتاني: كنت في مجلس سُليمان بن حرب ، والبخاري معنا ، يسمع ولا يكتُب ، فقيل لبعضهم: ماله لا يكتب؟ فقال: يرجِع إلى بخارى ويكتب من حفظه.

ومن زهده وحسن شمائله وفضائله ما حكاه ورّاقه أنه ورث من أبيه مالاً جليلاً ، وكان أبوه يقول: لا أعلم من مالي درهماً من حرام ، ولا درهماً من شبهة ، فكان البخاري يعطيه مقارضة ، فقطع غريم له خمسة وعشرين ألفاً ، فقيلَ له: استعن بكتاب الوالي ، فقال: إن أخذت منهم كتاباً طمِعوا ، ولن أبيع ديني بدنياي ، ثم صالح غريمه على أن يعطيه كل شهر عشرة دراهم ، وذهب ذلك المال كله .

وقال غُنجار في «تاريخه»: كان حُمِلَ إلى محمد بن إسماعيل بضاعة أنفذها إليه أبو حَفْص ، فاجتمع بعض التجار إليه بالعشية ، وطلبوها منه بربح خمسة آلاف درهم ، فقال لهم: انصرفوا الليلة ، فجاءه من الغد تجار آخرون ، فطلبوا منه البضاعة بربح عشرة آلاف درهم ، فردهم ، وقال: إني نويت البارحة أن أدفعها إلى الأولين ، فدفعها لهم ، وقال: لا أحب أن أنقُضَ نيتي .

وقال ورّاقُهُ: سمعته يقول: خرجت إلى آدم بن أبي إياس ، فتأخرت نفقتي حتى صرت آكل حشيش الأرض ، فلما كان في اليوم الثالث أتاني رجل لا أعرفه ، فأعطاني صرة فيها دنانير ، قال: وسمعته يقول: كنت أستغل في كل شهر خمس مئة درهم ، فأنفقها في طلب العلم ، وما عند الله خير وأبقى .

وقال عبدالله بن محمد الصيّار: كنت عند محمد بن إسماعيل في منزله ، فجاءته جاريته ، وأرادت دخول المنزل ، فعثرت على محبرة بين يديه ، فقال لها: كيف تمشين؟ فقالت له: إذا لم تكن طريق كيف أمشي؟ فبسط يديه ، وقال: اذهبي ، فقد أعتقتك ، قيل له: يا أبا عبدالله أغضبتك؟ قال: فقد أرضيت نفسي بما فعلت .

وقال ورّاقُهُ: سمعته يقول: لا يكون لي خصم يوم القيامة ، فقلت: إن بعض الناس ينقِمون عليك «التاريخ» يقولون: فيه اغتياب الناس ،

فقال: إنما روينا رواية ولم نَقُلْه من عند أنفسنا ، وقد قال النبي ، ﷺ: «بئس أخو العشيرة» قال: وسمعته يقول: ما اغتبت أحداً قطُّ منذ علمت أن الغيبة حرام ، قال: وكان يقول: إني لأرجو أن ألقى الله ، ولا يحاسبني أني اغتبت أحداً.

وقال أبو بكر بن المُنير: كان محمد بن إسماعيل يوماً يصلي ، فلسعه الزُّنبور سبع عشرة مرة ، فلما قضى صلاته قال: انظروا أي شيء هذا الذي آذاني في صلاتي ، فنظروا فإذا الزنبور قد ورّمه في سبعة عشر موضعاً ، ولم يقطع صلاته ، وقال: كنت في آية فأحببت أن أتمَّها.

وقال أبو الحسن يوسف بن أبي ذَرّ: كان محمد بن إسماعيل قد مرض فعرضوا ماءه على الأطباء ، فقالوا: إن هذا الماء يشبه ماء بعض أساقفةِ النَّصارى ، فإنهم لا يَأْتَدِمُون ، فصدقهم ، وقال: لم أئتدم منذ أربعين سنةً ، فسألوا عن علاجه ، فقالوا: علاجه الأدم ، فامتنع حتى ألح عليه المشايخ ، وأهل العلم ، فأجابهم إلى أن يأكل مع الخبز سكرة.

وقال الحاكم: كان محمد بن إسماعيل إذا كان أول ليلة من شهر رمضان يجتمع إليه أصحابه فيصلي بهم ، ويقرأ في كل ركعة عشرين آية ، وكذلك إلى أن يختم القرآن ، وكان يقرأ في السحر ما بين النصف إلى الثلث من القرآن ، فيختِم عند السحر في كل ثلاث ليال ، وكان يختِم بالنهار في كل يوم ختمة ، ويكون ختمه عند الإفطار كل ليلة ، ويقول: عند كل ختمة دعوة مستجابة.

وقال ورّاقه: كان أبو عبدالله إذا كنت معه في سفر يجمعنا بيت واحد إلا في القَيْظ ، فكنت أراه يقوم في الليلة خمس عشرة مرة إلى عشرين ، في كل ذلك يأخذ القدّاحة ، فيُوري ناراً بيده ويُسرج ، ويخرّج أحاديث ، فيعلم عليها ، ثم يضع رأسه ، فقلت له: إنك تحمل على نفسك كل هذا ولا توقِظُني ، قال: أنت شاب فلا أحب أن آخذ عليك نومك ، وكان يصلي وقت السحر ثلاث عشرة ركعة يوتر منها بواحدة ، قال: وكان معه

شيء من شَعْرِ النبي ﷺ جعله في ملبوسه.

وقال محمد بن منصور: كنا في مجلس أبي عبدالله البخاري فرفع إنسان قذاة من لحيته، وطرحها على الأرض، فرأيت البخاري ينظر إليها وإلى الناس، فلما غَفَلَ الناس رأيته مدّ يده، فرفع القَذاة من الأرض فأدخلها في كمه، فلما خرج من المسجد رأيته أخرجها، ووضعها على الأرض، فكأنه صان المسجد عما تُصان عنه لحيته، وأخرج الحاكم في «تاريخه» من شعره قوله:

اغْتنمْ في الفراغِ فَضْلَ رُكُوعٍ ... فَعسى أنْ يكُونَ مَوتُك بَغتَهْ
كَم صحيحٍ رأيْتَ من غَيْرِ سُقْمٍ ... ذَهَبَتْ نفسُهُ الصَّحيحةُ فَلْتَهْ

ومن العجيب أنه مات بغتة كما يأتي، ولما نعي له عبد الله بن عبد الرحمن الدّارِميُّ الحافظ أنشد:

إنْ عِشْتَ تُفجع بالأحِبّةِ كلِّهم ... وفناءُ نَفْسِك لا أبالَكَ أفْجعُ

ثناء أشياخه عليه

ومن ثناء أشياخه عليه ما رواه ورّاقُه، قال: سمعت البخاري يقول: كان إسماعيل بن أبي أُوَيس إذا انتخبت من كتابه نسخ تلك الأحاديث لنفسه، وقال: هذه أحاديث انتخبها محمد بن إسماعيل من حَديثي، قال: وقال لي ابن أبي أُوَيْس: انظر في كتبي وجميع ما أملك لك، وأنا شاكرٌ لك أبداً ما دمت حياً.

وقال أبو مصعب أحمد بن أبي بكر الزُّهْرِيّ: محمد بن إسماعيل أفقه عندنا وأبصر بالحديث من أحمد بن حَنْبل، فقال له رجل: جاوزت الحد، فقال له أبو مصعب: لو أدركت مالكاً، ونظرت إلى وجهه ووجه محمد بن إسماعيل، لقلت: كلاهما واحد في الحديث والفقه.

وقال عبدانُ بن عُثمان المَرْوَزِيُّ: ما رأيت شاباً أبصر من هذا، وأشار إلى محمد بن إسماعيل.

وقال قُتيبة بن سعيد: جالست الفقهاء والزهاد والعباد، فما رأيت منذ عَقَلْتُ مثل محمد بن إسماعيل، وهو في زمانه كعمر في الصحابة. وقال أيضاً: لو كان محمد بن إسماعيل في الصحابة لكان آية، وسأله أيضاً رجل عن محمد بن إسماعيل، فقال: يا هؤلاء نظرت في الحديث وفي الرأي، وجالست الفقهاء والزهاد والعباد، فما رأيت منذ عَقَلْت مثل محمد بن إسماعيل. وسئل يوماً عن طلاق السكران، فدخل البُخاري، فقال: قُتيبة للسائل: هذا أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهَوَيه، وعلي بن المَديني، قد ساقهم الله إليك، وأشار إلى البُخاري. وقال أيضاً: رُحِلَ إليّ من شرق الأرض وغربها، فما رَحَلَ إلي مثل محمد بن إسماعيل، ولما حُكي ذلك لمهيار، قال: صدق قُتيبة، أنا رأيته مع يحيى بن مَعين، وهما جميعاً يختلفان إلى محمد بـن إسماعيل، فرأيت يحيى منقاداً له في المعرفة.

وقال أحمد بن حَنْبل: ما أخرجت خراسان مثل محمد بن إسماعيل. وسأله عبدالله ابنه عن الحفاظ، فقال: شُبّان من خُراسان، فعده فيهم، وبدأ به.

ولما قدم البَصْـرة قال مُحمد بن بَشّار: قدم اليوم سيد الفقهاء، وقال أيضاً: ما قدم علينا مثل محمد بن إسماعيل، وقال أيضاً: أنا أفتَخِرُ به منذ سنين.

وقال عبدالله بن يوسف التِّنيسيّ للبُخاري: يا أبا عبدالله انظر في كتبي وأخبرني بما فيها من السَّقط، فقال: نعم.

وقال: دخلت على الحُميدِيّ وأنا ابن ثمان عشرة سنة، أول سنة حج، فإذا بينه وبين آخر اختلاف في حديث، فلما بَصرني، قال: جاء من يفصِلُ بيننا، فعرضا علـيّ الخصومة، فقضيت للحُمَيْدِيّ، وكان الحق.

وقال البخاري: قال لي مُحمد بن سلام: انظر في كُتبي فما وجدت فيها من خطأ فاضرب عليه، فقال له بعض أصحابه: من هذا الفتى؟ فقال: هذا الذي ليس له مثله، وكان محمد بن سلام يقول: كلما دخل

علـيٌ محمد بـن إسماعيل: تحيرت ولا أزال خائفاً ، يخشى أن يخطىء بحضرته ، وقال سليم بن مجاهد: كنت عند محمد بن سلام فقال لي: لو جئت قبل لرأيت صبيّاً يحفظ سبعين ألف حديث.

وقال حاشد بن إسماعيل: رأيت إسحاق بن راهَوَيه جالساً على المنبر ، والبخاري جالس معه ، وإسحاق يُحَدِّثُ بحديث ، فأنكره محمد ، فرجع إسحاق إلى قوله ، وقال: يا معشر أصحاب الحديث انظروا إلى هذا الشابِّ ، واكتُبوا عنه ، فإنه لو كان في زمن الحسن بن أبي الحسن البَصْريّ لاحتاج إليه ، لمعرفته في الحديث وفقهه ، وقال البخاري: أخذ إسحاق بن راهَوَيه كتاب «التاريخ» الذي صنفته ، فأدخله على عبدالله بن طاهر الأمير ، فقال له: أيها الأمير لا أُريك سحراً.

وقال أبو بَكْرٍ المَديني: كُنّا يوماً عند إسحاق بن راهَوَيه ، ومحمد بن إسماعيل حاضر ، فمر إسحاق بحديث ، ودون صحابيه الكنجاراني ، فقال إسحاق: يا أبا عبد الله: أيش هي كنجاران؟ فقال قرية باليمن، كان معـاوية بعث هذا الـرجـل الصحـابي إلى اليمن، فسمع منه عطاء هذا حديثين، فقال له: يا أبا عبد الله كأنك شهدت القوم، وقال: فَتْح بن نُوح: أتيت على ابن المديني ، ومحمد بن إسماعيل جالس عن يمينه ، وكان إذا حدث التفت إليه مهابةً له ، وقال البخاري: ما استَصْغرت نفسي عند أحد إلا عند عليّ بن المَديني ، وربما كنت أغرب عليه ، فبلغ ذلك ابن المديني ، فقال: دعوه فما رأى مثل نفسه .

وقال البُخاري: ما ذاكرني أصحاب عمرو بن علي الفَلّاس بحديث فقلت: لا أعرفه ، فَسرُّوا بذلك ، وصاروا إلى عمرو بن علي ، وقالوا له: ذاكرنا محمد بن إسماعيل بحديث فلم يعرفه ، فقال عمرو بن علي: حديث لا يعرفه محمد بن إسماعيل ليس بحديث.

وقال رجاء بن رجاء الحافظ: فضل محمد بن إسماعيل على العلماء

كفضل الرجال على النساء ، وقال أيضاً: هو آية من آيات الله تمشي على الأرض.

وقال الحُسين بن حُريث: لا أعلم أني رأيت مثل محمد بن إسماعيل، كأنه لم يخلق إلا للحديث.

وقال أبو بكر بن أبي شَيْبة ومحمد بن نُمير: ما رأينا مثل محمد بن إسماعيل ، وكان أبو بكر بن أبي شيبة يسميه البازل ، يعني الكامل.

وقال أبو عيسى التِّرمِذي: كان محمد بن إسماعيل عند عبدالله بن مُنير ، فقال له لما قام: يا أبا عبدالله! جعلك الله زين هذه الأمة ، قال أبو عيسى: فاستجاب الله تعالى فيه ، وكان عبدالله بن مُنير يكتب عنده ويقول: أنا من تلامذته وهو من أشياخه الذين روى عنهم في صحيحه.

وقال يحيى بن جعفر البِيْكَنْدِيّ: لو قدرت أن أزيد من عمري في عمر محمد بن إسماعيل لفعلت ، فإن موتي يكون موت رجل واحد ، وموت محمد بن إسماعيل فيه ذهاب العلم ، وكان يقول له: لولا أنت ما استطعت العيش بِبُخارى .

وقال علي بن حَجَر: أخرجت خراسان ثلاثة ، البخاري ، فبدأ به قال: وهو أبصرهم وأعلمهم بالحديث وأفقههم. قال: ولا أعلم أحداً مثله.

وقال: أحمد بن إسحاق السرماري: من أحب أن ينظر إلى فقيه بحقه وصدقه ، فلينظر إلى محمد بن إسماعيل.

وقال حاشد: رأيت عمرو بن زُرارة ، ومحمد بن ربيع ، عند محمد ابن إسماعيل، وهما يسألانه عن عِلل الحديث ، فلما قاما قالا لمن حضر المجلس: لا تخدعوا عن أبي عبدالله فإنه أفقه منا وأعلم وأبصر. قال: وكنا يوماً عند إسحاق بن راهَوَيه ، وعمر بن زُرارة ، وهو يستملي على أبي

عبدالله وأصحاب الحديث يكتُبون عنه ، وإسحاق يقول: هو أبصر منا ، وكان أبو عبدالله إذ ذاك شابّاً.

ثناء أقرانه وطائفة من أتباعه عليه:

قال أبو حاتم الرّازِيّ: لم تخرج خراسان قط أحفظ من محمد بن إسماعيل ، ولا قدم إلى العراق أعلم منه ، وقال محمد بن حُرَيْث: سألت أبا زُرعة عن ابن لَهيعة ، فقال لي: تركه أبوعبدالله يعني البُخاري.

وقال الحسين بن مُحمد المعروف بالعِجْلي: ما رأيت مثل محمد بن إسماعيل ، ومسلم حافظ ولكنه لم يَبْلُغ مبلَغَ محمد بن إسماعيل ، قال العِجْلي: ورأيت أبا زُرعة وأبا حاتم يستمعان إليه ، وكان أمة من الأمم ، دِيِّناً ، فاضلاً ، يحسن كل شيء ، وكان أعلم من محمد بن يَحْيى الذُّهلي بكذا وكذا.

وقال عبدالله بن عبدالرحمن الدّارمي: قد رأيت العلماء بالحرمين والحجاز والشام والعراق ، فما رأيت فيهم أجمع من محمد بن إسماعيل ، وهو أعلمنا ، وأفقهنا ، وأكثرنا طلباً ، وسُئل الدّارِمِيُّ عن حديث ، وقيل له: إن البخاري صححه ، فقال: محمد بن إسماعيل أبصر مني وهو أكيس خلق الله ، عقل عن الله ما أمر به ، ونهى عنه من كتابه ، وعلى لسان نبيه ، إذا قرأ محمد القرآن شَغَلَ قلبه وبصره وسمعه وتفكر في أمثاله وعرف حلاله من حرامه.

وقال أبو الطَّيِّب حاتم بن منصور: كان محمد بن إسماعيل آية من آيات الله في بصره ، ونفاذه في العلم ، وقال أبو سَهْل محمود بن النَّضْر: دخلت البصرة والشام والحجاز والكوفة ، ورأيت علماءها ، فكلما جرى ذكر محمد بن إسماعيل فضلوه على أنفسهم ، وقال أبو سهل أيضاً: سمعت أكثر من ثلاثين عالماً من علماء مصر يقولون: حاجتنا في الدنيا النظر إلى محمد بن إسماعيل ، وقال صالح بن محمد جَزَرَة: ما رأيت خراسانيّاً أفهم من محمد بن إسماعيل ، وقال أيضاً: كان أحفظهم

للحديث ، وكنت أستملي له ببغداد فبلغ من حضر المجلس عشرين ألفاً . وسُئِلَ الحافظ أبو العباس الفضل بن العباس المعروف بفَضْلك الرّازي ، أيُّما أحفظ محمد بن إسماعيل أو أبو زرعة؟ فقال: لم أكن التقيت مع محمد بن إسماعيل ، فاستقبلني ما بين حلوان وبغداد ، فرجعت معه مرحلة ، وجهدت كل الجهد على أن آتي بحديث لا يعرفه ، فما أمكنني ، وها أنا ذا أُغْربُ على أبي زرعة عدد شعر رأسه . وقال محمد بن عبدالرحمن الدَّغُولي : كتَب أهل بغداد إلى محمد بن إسماعيل كتاباً فيه:

المسْلِمونَ بِخَيرٍ ما بقيتَ لَهُم ولَيْسَ بَعْدَكَ خَيرٌ حينَ تُفْتَقَدُ

وقال إمام الأئمة أبو بكر محمد بن إسحاق بن خُزَيْمة : ما تحت أديم السماء أعلمُ بالحديث من محمد بن إسماعيل .

وقال أبو عيسى التِّرمِذِيّ : لم أر أعلم بالعلل والأسانيد من محمد بن إسماعيل البخاري . وقال له مسلم : أشهد أنه ليس في الدنيا مثلك .

وقال عبدالله بن الأَخْرم : سمعت أبي يقول : رأيت مسلم بن الحجاج بين يدي البخاري ، وهو يسأله سؤال الصبيِّ المتعلم ، وسئل أبو عبدالله ابن الأَخْرم عن حديث ، فقال : إن البخاري لم يخرجه ، فقال له السائل : قد خرجه مسلم ، فقال أبو عبدالله : إن البخاري كان أعلم من مسلم ومنك ومني .

وقال أحمد بن سَيّار في «تاريخ مرو» : محمد بن إسماعيل البخاري طلب العلم ، وجالس الناس ، ورحل في الحديث ومهر فيه وأبصر ، وكان حسن المعرفة ، حسن الحفظ ، وكان يتفقه ، وقال أبو أحمد بن عدي : كان يحيى بن محمد بن صاعد إذا ذكر البخاري قال : ذلك الكبش النَّطّاح .

وقال أبو عمرو الخفاف : حدثنا التقي النقي العالم الذي لم أر مثله محمد بن إسماعيل ، قال : وهو أعلم بالحديث من أحمد وإسحاق بن

راهَوَيه وغيرهما بعشرين درجة ، ومن قال فيه شيئاً فعليه مني ألف لعنة ، وقال أيضاً: لو دخل من هذا الباب وأنا أحدث لَمُلِئْتُ منه رعباً ، وقال عبدالله بن حَمّاد الأيلي: لوِدِدْت أني كنت شعرة في جسد محمد بن إسماعيل.

وقال سليم بن مُجاهد: ما رأيت منذ ستين سنة أحداً أفقه ولا أورع من محمد بن إسماعيل.

وقال موسى بن هارون الحَمّال: لو أن أهل الإسلام اجتمعوا على أن يصيبوا آخر مثل محمد بن إسماعيل لما قَدَروا عليه ، وقال: عبدالله بن محمد بن سعيد بن جعفر: سمعت العلماء بمصر يقولون: ما في الدنيا مثل محمد بن إسماعيل في المعرفة والصلاح ، قال عبدالله بن محمد: وأنا أقول قولهم.

وقال الحافظ أبو العباس أحمد بن محمد بن عُقدة: لو أن رجلاً كتب ثلاثين ألف حديث لما استغنى عن «تاريخ» محمد بن إسماعيل ، وقال الحاكم أبو أَحْمد في الكُنى: كان أحد الأئمة في معرفة الحديث وجمعه ، ولو قلت: إني لم أر تصنيف أحد يشبه تصنيفه في الحسن والمبالغة لفعلت.

عجيب حفظه

ومن عجيب حفظه ما رواه أبو أحمد بن عدي الحافظ ، قال: سمعت عدة من مشايخ بغداد يقولون: إن محمد بن إسماعيل البخاري قدم بغداد: فسمع به أصحاب الحديث ، فاجتمعوا وأرادوا امتحان حفظه ، فعمدوا إلى مئة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها ، وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر ، وإسناد هذا المتن لمتن آخر ، ودفعوها إلى عشرة أنفس ، لكل رجل عشرة أحاديث ، وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يُلقوا ذلك على البخاري ، وأخذوا عليه الموعد للمجلس ، فحضروا ، وأحضر جماعة من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم ومن البغداديين ، فلما اطمأن

المجلس بأهله ، انتدب رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث ، فقال البخاري : لا أعرفه ، فما زال يلقي عليه واحداً بعد واحد حتى فرغ ، والبخاري يقول لا أعرفه ، وكان العلماء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ، ويقولون : فهم الرجل ، ومن كان لم يدر بعلمه يقضي على البخاري بالعجز والتقصير ، وقلة الحفظ ، ثم انتدب رجل من العشرة أيضاً ، فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة ، فقال : لا أعرفه . ولم يزل يلقي عليه واحداً بعد واحد حتى فرغ من عشرته ، والبخاري يقول : لا أعرفه ، ثم انتدب الثالث والرابع إلى إتمام العشرة ، حتى فرغوا كلهم من إلقاء تلك الأحاديث المقلوبة ، والبخاري لا يزيدهم على : لا أعرفه ، فلما علم أنهم قد فرغوا التفت إلى الأول ، فقال : أما حديثك الأول فقلت : كذا ، وصوابه كذا ، وحديثك كذا ، وصوابه كذا ، والثالث والرابع على الولاء حتى أتى على تمام العشرة ، فرد كل متن إلى إسناده وكل إسناد إلى متنه ، وفعل بالآخرين مثل ذلك ، فأقر الناس له بالحفظ ، وأذعنوا له بالفضل ، قال ابن حَجَر : وليس العجب من رده للخطأ ، فإنه كان حافظاً ، بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مرة واحدة ، وقد قال أبو بكر الكلْوَاذاني : ما رأيت مثل محمد بن إسماعيل ، كان يأخذ الكتاب من العلم ، فيطلع عليه اطلاعة ، فيحفظ عامة أطراف الأحاديث من مرة واحدة .

وقال أبو الأَزْهَر : كان بسمرقند أربع مئة محدث ، فتجمعوا وأحبوا أن يغالطوا محمد بن إسماعيل ، فأدخلوا إسناد الشام في إسناد العراق ، وإسناد العراق في إسناد الشام ، وإسناد الحرم في إسناد اليمن ، فما استطاعوا مع ذلك أن يتعلقوا عليه بسقطة .

وروى غُنجار في «تاريخه» عن يوسف بن موسى المَرْوَزِي ، قال : كنت بالبصرة في جامعها إذ سمعت منادياً ينادي : يا أهل العلم ، لقد قدم محمد بن إسماعيل البخاري ، فقاموا إليه ، وكنت معهم ، فرأينا رجلاً شابّاً ليس في لحيته بياض ، فصلى خلف الأسطوانة ، فلما فَرَغَ أحدقوا

به ، وسألوه أن يَعْقِدَ لهم مجلساً للإملاء ، فأجابهم إلى ذلك ، فقام المنادي ثانياً في جامع البصرة ، فقال: يا أهل العلم ، لقد قدم محمد بن إسماعيل ، فسألناه أن يَعْقِد مجلس الإملاء ، فأجاب بأن يجلس غداً في موضع كذا ، فلما كان الغد حضر المحدثون والحفاظ والفقهاء والنظارة ، حتى اجتمع قريب من كذا وكذا ألف نفس ، فجلس أبو عبدالله للإملاء ، فقال قبل أن يأخذ في الإملاء: يا أهل البصرة أنا شابٌّ ، وقد سألتموني أن أحدثكم ، وسأحدثكم بأحاديث عن أهل بلدكم تستفيدونها ، يعني ليست عندكم ، فتعجب الناس من قوله ، فأخذ في الإملاء ، فقال: حدثنا عبدالله بن عُثمان بن جَبَلة بن أبي رَوّاد ببلدكم ، قال حدثني أبي ، عن شعبة ، عن منصور وغيره ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن أنس بن مالك أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! الرجل يحب القوم . . الحديث ، ثم قال: هذا ليس عندكم عن منصور يعني الذي ساقه هو عنه ، إنما هو عندكم عن غير منصور ، فأملى عليهم مجلساً من هذا النسق ، يقول في كل حديث: روى فلان هذا الحديث عندكم كذا ، فأما من رواية فلان يعني التي يسوقها فليست عندكم.

قلت: هذه أعجب من قضية أهل بغداد السابقة لضبطه في هذه الرواية أن مِصْراً عظيماً مثل البَصْرة لم يرو أحد من أهله هذه الأحاديث عمن ساقها عنه.

وقال سليم بن مجاهد: قال لي محمد بن إسماعيل: لا أجيء بحديث عن الصحابة والتابعين إلا عرفت مولد أكثرهم ووفاتهم ومساكنهم ، ولست أروي حديثاً من حديث الصحابة والتابعين -يعني من الموقوفات- إلا وله أصل أحفظ ذلك من كتاب الله وسنة رسوله.

وقال علي بن الحُسين بن عاصم: قدم علينا محمد بن إسماعيل ، فقال له رجل من أصحابنا: سمعت إسحاق بن راهَوَيه يقول: كأني أنظر إلى سبعين ألف حديث من كتابي ، فقال له محمد بن إسماعيل: أتعجب

من هذا القول ، لعل في هذا الزمان من ينظر إلى مئتي ألف ألف من كتابه وإنما عنى نفسه.

وقال محمد بن حَمدويه: سمعت البخاري يقول: أحفظ مئة ألف حديث صحيح ، وأحفظ مئتي ألف حديث غير صحيح ، قال ورّاقه: سمعته يقول: ما نمت البارحة حتى عددت كم أدخلت في تصانيفي من الأحاديث ، فإذا هو نحو مئتي ألف حديث ، وقال أيضاً: لو قيل لي: تمنْ لما قمت حتى أروي عشرة آلاف حديث في الصلاة خاصة ، وقال أيضاً: قلت له: تحفظ جميع ما أدخلت في مصنفاتك ، قال: لا يخفى علي جميع ما فيها ، وصنفت جميع كتبي ثلاث مرات ، قال: وبلغني أنه شرب البلاذر ، فقلت له مرة في خلوة: هل من دواء للحفظ ، فقال: لا أعلم ، ثم أقبل علي فقال: لا أعلم شيئاً أنفع للحفظ من نهمة الرجل ، ومداومة النظر ، وقال: أقمت بالمدينة بعد أن حججت سنة جرداً أكتب الحديث ، قال: وأقمت بالبصرة خمس سنين معي كتبي ، أصنف ، وأحج ، وأرجع من مكة إلى البصرة ، قال: وأنا أرجو أن يبارك الله تعالى للمسلمين في هذه المصنفات ، وقال البخاري: تذكرت يوماً أصحاب أنس فحضرني في ساعة واحدة ثلاث مئة نفس ، وما قدمت على شيخ إلا كان انتفاعه بي أكثر من انتفاعي به . وقال ورّاقه: أعمل في الهبة كتاباً فيه نحو خمس مئة حديث ، وقال: ليس في كتاب وكيع في الهبة إلا حديثان مسندان أو ثلاثة ، وفي كتاب ابن المبارك خمسة أو نحوها ، وقال أيضاً: ما جلست للتحديث حتى عرفت الصحيح من السقيم ، وحتى نظرت في كتب أهل الرأي ، وما تركت بالبصرة حديثاً إلا كتبته ، قال: وسمعته يقول: لا أعلم شيئاً يحتاج إليه إلا وهو في الكتاب والسنة ، قال: فقلت له: يمكن معرفة ذلك ، قال: نعم.

وقال الحافظ أحمد بن حَمدون: رأيت البخاري في جِنازة ، ومحمد ابن يحيى الذهلي يسأله عن الأسماء والعلل ، والبخاري يمر فيه مثل السهم كأنه يقرأ ﴿قل هو الله أحد﴾.

وقال البَيْهَقِيّ في «المدخل» عن أبي حامد الأعمش: سمعت مسلم ابن الحجاج وجاء إلى محمد بن إسماعيل فَقَبَّلَ عينيه، وقال: دعني حتى أقبل رجليك يا أستاذ الأُسْتاذِين، ويا سيد المحدثين، وطبيب الحديث في علله، حدثك محمد بن سلام، حدثنا مَخْلد بن يزيد، أخبرني ابن جريج، حدثني موسى بن عُقْبة، عن سُهَيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هُريرة، عن النبي ﷺ قال: كفارة المجلس أن يقول إذا قام من مجلسه سُبحانك ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت... الخ، فقال له البخاري: هذا حديث مليح، ولا أعلم بهذا الإسناد في الدنيا حديثاً غير هذا، إلا أنه معلول، فإن موسى بن عُقْبة لا يذكر له مسند عن سُهيل، ولكن قل: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا وُهَيْب، حدثنا سُهَيْل، عن عَوْن بن عبدالله، قال البُخاري: فهذا أولى. وفي رواية أنه لما قال له: معلول، قال مسلم: لا إله إلا الله، وارتعد، وقال: أخبرني، ثم قال له: لا يبغضك إلا حاسد، وأشهد أنه ليس في الدنيا مثلك.

فضائِلُ الجامعِ الصحيح

ومن فضائل كتابه «الجامع الصحيح» ما رواه الفِرَبْري، قال: سمعت البُخاري يقول: ما وضعت في كتاب الصحيح حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين، وفي رواية البُجَيْري: صنفت كتابي الجامع في المسجد الحرام، وما أدخلت فيه حديثاً حتى استخرت الله تعالى، وصليت ركعتين، وتيقنت صحته، ومعنى كونه صنفه في المسجد الحرام: أنه ابتدأ تصنيفه وترتيبه وأبوابه في المسجد الحرام، ثم كان بعد ذلك يخرج الأحاديث في بلده وغيره، ويدل عليه قوله: صنفت «الجامع» من ست مئة حديث في ست عشرة سنة، وجعلته حجة فيما بيني وبين الله تعالى؛ فإنه لم يجاور بمكة هذه المدة، وروى ابن عَدِيّ عن جماعة من المشايخ أن البخاري حول تراجم «جامعه» بين قبر النبي ﷺ ومنبره، وكان يصلي لكل ترجمة ركعتين، ولا ينافي هذا ما تقدم، لأنه يحمل على أنه في الأول كتبه

في المسودة ، وهنا حوله من المسودة إلى المبيضة كما يدل عليه لفظ التحويل المذكور.

وقال محمد بن أبي حاتم ورّاقه: رأيت البخاري في المنام خلف النبي ﷺ ، والنبي ﷺ يَمْشي ، فكلما رفع ﷺ قدمه وضع البخاري قدمه في ذلك الموضع ، وروى الخطيب عن نَجْم بن فُضَيْل ، وكان من أهل الفَهْم ، قال: رأيت النبي ﷺ في المنام خَرَجَ من قبرِه ، والبخاري يمشي خلفه ، فكان النبي ﷺ ، إذا خطا خَطْوة يخطو البخاري ، ويضع قدمه على خطوة النبي ﷺ.

وروى الخطيب أيضاً أن الفِرَبْرِيّ قال: رأيت النبي ﷺ ، في النوم ، فقال لي: أين تريد؟ قلت: أريد محمد بن إسماعيل ، فقال: أقرئه مني السلام.

وقال أبو زيد المَرْوَزِيّ: كنت نائماً بين الركن والمقام، فرأيت النبي، ﷺ فقال لي: يا أبا زيد إلى متى تدرس كتاب الشافعي، ولا تدرس كتابي، فقلت: يا رسول الله! وما كتابك؟ فقال: جامع محمد بن إسماعيل.

وقال أبو جعفر العُقَيْلِيّ لما صنف البخاري كتاب «الصحيح» عرضه على علي بن المديني ، وأحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين وغيرهم ، فاستحسنوه ، وشهدوا له بالصحة إلا أربعة أحاديث ، قال العُقَيْلي: والقول فيها قول البخاري ، فهي صحيحة.

وقال الحاكم: رحم الله محمد بن إسماعيل، فإنه هو الذي ألف الأصول وبين للناس، فكل من عمل بعده إنما أخذه من كتابه كمسلم فرق أكثر كتابه في كتابه، وتَجَلَّدَ فيه حق الجَلادة، حيث لم ينسبه إليه.

وقال أبو الحسن الدَّارَقُطْنِيُّ الحافظ: لولا البخاري لما راح مسلم ولا جاء ، وقال أيضاً: إنما أخذ مسلم كتاب البخاري ، فعمل به مستخرجاً وزاد فيه أحاديث.

ما وقع له مع محمد بن يحيى الذُّهْلِيّ

قال الحاكم في «تاريخه»: لما قدم البخاري نيسابور سنة خمسين ومئتين ، قال محمد بن يحيى الذُّهْلِيّ: اذهبوا إلى هذا الرجل الصالح العالم ، فاسمعوا منه ، فذهب الناس إليه ، فأقبلوا على السماع منه حتى ظهر الخلل في مجلس محمد بن يحيى ، فتكلم فيه بعد ذلك.

وقال مسلم: ما رأيت والياً ولا عالماً فعل به أهل نَيْسابور ما فعلوا لمحمد بن إسماعيل ، استقبلوه من مرحلتين من البلد أو ثلاث ، وقال محمد بن يحيى الذُّهلي في مجلسه: من أراد أن يستقبل محمد بن إسماعيل غداً فَلْيستقبله ، فإني أستقبله ، فاستقبله الذُّهْلِيُّ وجميع علماء نيسابور ، وازدحم الناس عليه حتى امتلأت الدار والسطوح ، ثم بعد اليوم الثالث قام رجل في المجلس ، فقال له: ما تقول في اللفظ بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق ، فأعرض عنه ، ولم يجبه ثلاث مرات ، فألح عليه فقال له: القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأفعال العباد مخلوقة ، والامتحان بدعة ، فَشَغَبَ الرجل ، وقال: قد قال لفظي بالقرآن مخلوق.

وقال أبو عمر ، وأحمد بن نَصْر: سمعت البخاري يقول: من زَعَمَ أني قلت: لفظي بالقرآن مخلوق فهو كذاب ، فإني لم أقله إلا أني قلت: أفعال العباد مخلوقة.

وقال محمد بن نُعيم: سألت البخاري لما وقع في شأنه ما وقع عن الإيمان ، فقال: قول وعمل ، ويزيد وينقص ، والقرآن كلام الله ، غير مخلوق ، وأفضل أصحاب رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ، على هذا حَيِيْتُ ، وعليه أموت ، وعليه أبعث إن شاء الله تعالى.

وقال الحاكم: ولما وقع بين البخاري وبين الذُّهْلِيّ في مسألة اللفظ انقطع الناس عن البُخاري إلا مسلم بن الحجاج ، وأحمد بن سَلَمة ، فقال الذُّهلي: ألا من قال باللفظ فلا يَحِلُّ له أن يحْضُر مجلسنا ، فأخذ

مسلم رداءه فوق عمامته ، وقام على رؤوس الناس ، فبعث إلى الذُّهْلِيِّ جميع ما كتبه عنه على ظهر جمال . قال ابن حَجَر: أنصف مسلم ، فلم يحدث في كتابه عن هذا ولا عن هذا.

ولما قام مُسلم وأحمد بن سَلَمة من مجلس محمد بن يحيى الذُّهْلِيّ بسبب البُخاري ، قال الذُّهْلِيّ : لا يساكنني هذا الرجل في البلد ، فخشي البخاري ، وسافر ، قال أحمد بن سَلَمة : دخلت على البخاري فقلت له : يا أبا عبدالله : إن هذا رجل مقبولٌ في خُراسان لا سيما في هذه المدينة ، وقد لَجَّ في هذا الأمر حتى لا يقدر أحد منا أن يكلمه فيه فما ترى؟ فقبض على لحيته ثم قال : ﴿وأُفَوِّضُ أَمري إلى اللهِ إنَّ اللهَ بَصيرٌ بالعبادِ﴾ [غافر: ٤٤]. ثم قال: اللهم إنك تعلم أَني لم أرد المقام بنيسابور أَشراً ولا بطراً ولا طلباً للرياسة، وإنما أبت نفسي الرجوع إلى الوطن لغلبة المخالفين، وقد قصدني هذا الرجل حسداً لما آتاني الله لا غير، ثم قال لي : يا أحمد إني خارج غداً لتخلصوا من حديثه لأجلي .

رجوعه إلى بخارى

فخرج إلى بخارى ، ولما رجع لها نصبت له القباب على فرسخٍ من البلد ، واستقبله عامة أهل البلد حتى لم يبق مذكور ، ونثر عليه الدنانير والدراهم ، فبقي مدة ثم وقع بينه وبين أمير بخارى خالد بن أحمد الذُّهْلِيّ ما وقع ، فأمر بخروجه ، وذلك أن الأمير بعث إليه أن احمل إليَّ «الجامع» و «التاريخ» لأسمع منك ، فقال البخاري لرسوله : قل له : إني لا أذل العلم ، ولا أحمله إلى أبواب السلاطين ، فإن كانت له حاجة إلى شيء منه فليحضر في مسجدي ، أو في داري ، فإن لم يُعْجِبْك هذا فأنت سلطان ، فامنعني من المجلس ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة ، فإني لا أكتم العلم ، فكان هذا سبب الوَحْشة بينهما؛ فاستعان عليه الأمير بحُرَيْث بن أبي وَرْقاء وغيره من أهل بُخارى حتى تكلموا في مذهبه ، فنفاه عن البلد ، فدعا عليهم ، فقال: اللهم أرِهِم ما قصدوني به في أنفسهم ،

وأولادهم، وأهاليهم. أما خالد فلم يأت عليه إلا أَقَلُّ من شهر حتى ورد أمر الظاهرية بأن يُنادى عليه، فنودِيَ عليه، وهو على أتان، وأُشْخِصَ على إكافٍ، ثم صار عاقبة أمره إلى العَزل والحبس، وأما حُرَيْثٌ فابتُلي في أهله، فرأى فيها ما يَجِلُّ عن الوصف، وأما فلان فإنه ابتُلي في أولاده، فأراه الله فيهم البلايا.

قال عبد القُدوس بن عبدالجبار: فخرج البخاري إلى خَرْتَنْك - بفتح الخاء والتاء بينهما راء ساكنة، وبعد التاء نون ساكنة - قرية من قرى سَمَرْقَنْد، وكان له فيها أقرباء، فنزل عندهم، قال: فسمعته ليلة من الليالي، وقد فَرَغَ من صلاة الليل، يقول في دعائه: اللهم قد ضاقت علي الأرض بما رحبت، فاقبضني إليك، فما تَمَّ الشهر حتى قبضه الله تعالى، قال غالب بن جِبْريل الذي نزل عنده البخاري بخَرْتَنْك: إنه أقام أياماً فمرض حتى وُجِّهَ إليه رسول من أهل سَمَرْقَنْد يلتمِسون فيه الخروج إليهم، فأجاب وتَهيَّأَ للركوب، ولبس خُفَّيْهِ وتَعَمَّمَ، فلما مشى قدر عشرين خطوة إلى الدابة ليركبها، قال: أرسلوني، فقد ضَعُفْت؛ فأرسلناه، فدعا بدعوات، ثم اضطجع، فقبض، فسال منه عرقٌ كثير، وكان قد قال لنا: كفنوني في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ولا عِمامة ففعلنا، فلما أدرجناه في أكفانه وصلينا عليه، ووضعناه في قبره، فاح من تراب قبره رائحة طيبة كالمسك، ودامت أياماً، وجعل الناس يختلفون إلى القبر أياماً، يأخذون من ترابه حتى جعلنا عليه خشباً مُشبكاً، قال عبدالواحد بن آدم الطَّوَاوِيْسِيُّ: رأيت النبي ﷺ في النوم، ومعه جماعة من أصحابه، وهو واقف في موضع، فسلمت عليه، فرد علي السلام، فقلت له: ما وقوفك هنا يا رسول الله؟ قال: أنتظر محمد بن إسماعيل، قال: فلما كان بعد أيام بلغني موته، فنظرت فإذا هو قد مات في الساعة التي رأيت فيها النبي ﷺ وكان ذلك ليلة السبت، ليلة عيد الفطر، سنة ست وخمسين ومئتين، وكانت مدة عمره اثنتين وستين سنة إلا ثلاثة عشر يوماً، تغمده الله برحمته. ومن روى عنه البخاري يَجِلُّ عن العد، ويكفي

ما في «صحيحه» لمن نظره ، وكذلك من روى عن البخاري ، فقد ذكر الفِرَبْري أن «الجامع الصحيح» سمعه منه تسعون ألفاً ، وقد روى عنه من أشياخه خلق ، ومن أقرانه خلق ، وتصانيفه عدد كثير ، نحو عشرين مصنفاً ، كلها مفيد جداً ، انتفع به المسلمون في أقطار الأرض ، وهذا القدر كاف من ترجمته ، منبه على ما لم يُذكر منها ، وهو كرشفة من البحر.

ولما كانت لـ«البخاري» شروح كثيرة ، لا بد من الإحالة عليها ، والعزو إليها ، أردت أن أذكر جملة من شروحه ، وها أنا أذكر منها ما ذكره القَسْطَلّاني في أوائل «شرحه».

شرحه الإمام أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخَطّابي بشرح لطيف ، فيه نكت لطيفة ، ولطائف شريفة ، واعتنى الإمام محمد التَّيْمِيّ بشرح ما لم يذكره الخطابي مع التنبيه على أوهامه.

وشرحه المهلب بن أبي صُفرة ، وهو ممن اختصر «الصحيح». وممن شرحه أبو الزِّناد سراج ، واختصر «شرح المهلب» تلميذه أبو عبدالله محمد ابن خَلَفَ بن المُرابط ، وزاد عليه فوائد ، وهو ممن نقل عنه ابن رشيد.

وشرحه أيضاً الإمام أبو الحسن علي بن خَلَف المالكِيّ الهندي المشهور بابن بَطّال ، وغالبه في فقه الإمام مالك من غير تَعَرُّض لموضوع الكتاب غالباً.

وشرحه أبو جعفر أحمد بن سعيد الداوودي ، وهو ممن ينقل عنه ابن التِّين ـ بفوقية بعدها تحتانية ثم نون ـ السَّفَاقُسي.

وشرحه الزين بن المنير في نحو عشر مجلدات.

وشرحه أبو الأَصْبَغ عيسى بن سهل بن عبدالله الأسدي ، وكذا الإمام قُطب الدين عبدالكريم الحَلَبِيّ الحَنَفِيّ ، وكذا الإمام مُغْلُطاي التركي ، قال صاحب الكَواكب: وشرحه بِتَتْميم الأطراف أشبه ، وبصحف تصحيح

التعليقات أمثل ، وكأنه من إخلائه عن مقاصد الكتاب على ضمان ، ومن شرح ألفاظه ، وتوضيح معانيه على أمان واختصره الجلال التباني .

وشرحه العلامة شمس الدين محمد بن يوسف بن علي بن محمد بن سعيد الكِرْماني ، فشرحه بشرح مفيد ، جامع لفرائد الفوائد ، وزوائد العوائد ، وسماه «الكواكب الدراري» لكن قال الحافظ ابن حَجَر في «الدرر الكامنة» : وهو شرح مفيد ، على أوهام فيه في النقل ، لأنه لم يأخذه إلا من الصحف .

وكذا شرحه ولده التَّقِيّ يحيى ، مستمداً من شرح أبيه ، وشرحه ابن المُلقِّن ، وأضاف إليه من «شرح الزَّرْكَشيّ» وغيره من الكتب وما سنح له من حواشي الدِّمْياطي «وفتح الباري» «والبدر العِتابي» وسماه «مجمع البحرين ، وجواهر الجدين» وهو في ثمانية أجزاء كبار ، وكذا شرحه العلامة السراج بن المُلَقِّن ، وكذا شرحه العلامة شمس الدين البِرْماوي في أربعة أجزاء ، أخذه من شرح الكِرماني وغيره ، كما قال في أوله . ومن أصوله أيضا مقدمة «فتح الباري» وسماه «اللامع الصبيح» ، ولم يُبيَّضْ إلا بعد موته ، وكذا شرحه الشيخ برهان الدين الحلبي ، وسماه «التلقيح لفهم قارئى الصحيح» ، وهو بخطه في مجلدين ، وبخط غيره في أربعة ، وفيه فوائد حسنة ، وقد التقط منه الحافظ ابن حَجَر ، حيث كان جَلَبَ ما ظن أنه ليس عنده ، لكونه لم يكن عنده إلا كراريس يسيرة من «الفتح» ، وشرحه أيضاً شيخ الإسلام الحافظ أبو الفضل ابن حَجَر ، وسماه «فتح الباري» وهو في عشرة أجزاء ، ومقدمته في جزء ، وشهرته وانفراده بما اشتمل عليه من الفوائد الحديثية ، والنكات الأدبية ، والمهمات الفقهية تغني عن وصفه ، لا سيما وقد امتاز بجمع طرق الحديث التي ربما يتبين من بعضها ترجيحُ أحد الاحتمالات شرحاً وإعراباً ، وطريقته في الأحاديث المكررة أنه يشرح في كل موضع ما يتعلق بقصد البخاري بذكره فيه ، ويحيل بباقي شرحه على المكان المشروح فيه ، قال الشيخ زَكَريا الأنصاري : وكثيراً ما كان رحمه الله تعالى يقول : أود لو تتبعت الحوالات

التي تقع لي فيه ، فإن لم يكن المحال به مذكوراً ، أو ذكر في مكان آخر غير المحال عليه ليقع إصلاحه فما فعل ذلك ، وكذلك ربما يقع لترجيح أحد الأوجه في الإعراب أو غيره من الاحتمالات أو الأقوال في موضع ، ثم يرجح في موضع آخر غيره إلى غير ذلك مما لا طَعْن عليه بسببه ، بل هذا أمر لا ينفك عنه كثير من الأئمة المعتمدين ، وكان ابتداء تأليفه في أوائل سنة سبع عشرة وثمان مئة على طريق الإملاء ، ثم صار يكتب بخطه شيئاً فشيئاً ، فيكتب الكُرّاس ، ثم يكتب جماعة من الأئمة المعتبرين ، ويعارض بالأصل مع المباحثة في يوم من الأسبوع ، وذلك بقراءة العلامة ابن خَضِر ، فصار السِّفْرُ لا يكمل منه شيء إلا وقد قوبل وحرر ، إلى أن انتهى .

قلت: لعل هذا الصنيع الواقع في التأليف هو السبب في تغيير الإحالات المذكورة .

وكان انتهاؤه في أول يوم من رجب سنة اثنتين وأربعين وثمان مئة سوى ما ألحق فيه بعد ذلك ، فلم ينته إلا قبيل وفاة المؤلف بيسير ، ولما تم عمل مصنفه وليمة بالمكان المسمى بالتاج والسبع وجوه ، وكانت في يوم السبت ثاني شعبان سنة اثنتين وأربعين ، وقرىء المجلس الأخير هناك بحضرة الأئمة كالقاياتي ، والونائي ، والسعد الدُّرِّي ، ولم يتخلف عنها من وجوه المسلمين إلا النادر، وكان المصروف على تلك الوليمة نحو خمس مئة دينار، أكمل الله تعالى بمنه وكرمه شرحنا، وأقدرنا على وليمة مثلها أو أزيد، وكملت مقدمته وهي في مجلد فخم في سنة ثلاث عشرة وثمان مئة .

وقد اختصر «فتح الباري» الشيخ أبو الفتح محمد بن الشيخ وفي الدين ابن الحسين المَرَاغِيّ .

وشرحه العلامة بدر الدين العَيْنِيّ الحنفي في عشرة أجزاء وأزيد ، وسماه «عمدة القارىء» ، وشرع في تأليفه في أواخر رجب سنة إحدى وعشرين وثمان مئة ، وفرغ في آخر الثلث الأول من ليلة السبت خامس

جمادى الأولى سنة سبع وأربعين وثمان مئة واستمد فيه من «فتح الباري». كان فيما قيل يستعيره من البرهان بن خضر بإذن مؤلفه له ، وتعقبه في مواضع مطولة بما تعمد الحافظ ابن حجر في «الفتح» تركه من سياق الحديث بتمامه ، وإفراد كل من تراجم الرواة بالكلام ، وبيان الأنساب ، واللغات ، والإعراب ، والمعاني ، والبيان ، واستنباط الفوائد من الحديث ، والأسئلة والأجوبة ، وغير ذلك.

قلت: جميع ما ذكر لم يترك منه في «الفتح» إلا ما يستغنى عنه ، ومن تابع العَيْنيّ وجده فيما يذكر من الأحاديث كالتخريج على «الفتح» ، وقد حكي أن بعض الفضلاء ذكر لابن حَجَر ترجيح «شرح العيني» بما اشتمل عليه من البديع وغيره ، فقال بديهة: هذا شيء نقله من شرح لركن الدين ، وكنت وقفت عليه قبله ، ولكن تركت النقل منه لكونه لم يتم ، إنما كتب منه قطعة ، وخشيت من تعبي بعد فراغها في الاسترسال في هذا النهج ، ولذا لم يتكلم العيني بعد تلك القطعة بشيء من ذلك ، قلت: يظهر هذا بديهة لمطالعه بعد الأجزاء الأول ، وبالجملة هو شرح حافل كامل ، ولكن «فتح الباري» فتح الباري.

وكذا شرح مواضع من البخاري الشيخ بدر الدين الزَّرْكَشِيّ في «التنقيح» ، وللحافظ ابن حجر نكت عليه لم تكمل ، وكذا شرحه العلامة بدر الدين الدَّمامِيني ، وسماه «مصابيح الجامع» ، وشرحه الحافظ الجلال السُّيوطِيّ في تعليق لطيف قريب من «تنقيح» الزركشي ، سماه «التوشيح على الجامع الصحيح» ، وكذا شرح شيخ الإسلام أبو زكرياء يحيى النَّوَوي قطعة من أوله ، إلى آخر كتاب الإيمان ، قلت: قد طبعت وطالعتها ، وكذا شرح الحافظ ابن كثير قطعة من أوله ، والزين ابن رجب الدمشقي ، والعلامة السراج البُلْقِيني ، والبدر الزَّرْكَشِي في غير «التنقيح» مطولاً ، وشرحه المَجْد الشِّيرازِيّ اللغوي مؤلف «القاموس» ، سماه «منح الباري بالسيح الفسيح المجاري في شرح البخاري» ، كمل ربع العبادات منه في عشرين مجلداً ، وقدر تمامه في أربعين مجلداً ، قال التقي الفاسِيّ:

لكنه قد ملأه بغرائب المنقولات ، لا سِيّما لما اشتهر باليمن مقالة ابن عربي ، وغلب ذلك على علماء تلك البلاد ، وصار يدخل من «فتوحاته» الكثير ما كان سبباً لشين شرحه عند الطاعِنين فيه ، وقال الحافظ ابن حجر: إنه رأى القطعة التي كملت في حياة مؤلفه قد أكلتها الأرضة بكمالها ، بحيث لا يقدر على قراءة شيء منها. ويقال: إن الإمام أبا الفضل النُّوَيْرِيّ ، خطيب مكة ، شرح مواضع منه ، وكذا العلامة محمد بن أحمد ابن مرزوق شارح بردة البُوصِيْرِيّ ، وسماه «المتجر الربيح والمسعى الرجيح في شرح الجامع الصحيح» ، وشرح العارف القدوة ، عبدالله بن أبي جمْرة ، ما اختصر منه وسماه «بهجة النفوس» ، وشرحه البُرهان النُّعْماني إلى أثناء الصلاة ، ولم يف بما التزمه ، وشرحه شيخ الإسلام ، أبو يحيى زكـريا الأنصاري السنيكي ، وشرحه الشمس الكُوراني مؤدب السلطان المظفر أبي الفتح محمد بـن عثمان ، فاتح القُسْطَنْطِينِيّة ، سماه «الكوثر الجاري إلى رياض صحيح البخاري» ، وهو في مجلدين ، وللعلامة شيخ الإسلام جلال الدين البُلْقيني «بيان ما فيه من الايهام» ، وهو في مجلد ، وشرحه أبو البقاء الأحمدي ، وأظنه لم يكمل ، وشرحه فقيه مذهب الشافعية الجلال البَكْري ، ولم يكمل ، وكتب الشيخ شمس الدين الدَّلْجي قطعة لطيفة من شرحه ، ولابن عبدالبَرّ «الأجوبة على المسائل المُستغربة من البخاري» ؛ سأله عنها المهلب بن أبي صفرة ، وكذا لأبي محمد بن حَزْم عدة أجوبة عليه ، ولابن المنير حواش على ابن بَطّال ، وله أيضاً كلام على التراجم ، سماه «المتواري» ، وكذلك لأبي عبدالله بن رشيد «ترجمان التراجم» ، وللفقيه أبي عبدالله محمد بن منصور بن حَمامة المَغراوي السلجماسي «حل أغراض البخاري المبهمة في الجمع بين الحديث والترجمة» ، وهي مئة ترجمة.

ولشيخ الإسلام الحافظ ابن حَجَر «انتقاض الاعتراض» يجيب فيه عما اعترضه العيني عليه في شرحه ، لكنه لم يُجِبْ عن أكثرها ، ولعله كان يكتب الاعتراضات ويُبَيِّضُ لها ، يجيب عنها ، فاخترمته المنية ، وله أيضاً

«الاستنصار على الطاعن المختار» ، وهو صورة فتيا عما وقع في خطبة شرح البخاري للعلامة العيني ، وله أيضاً أحوال الرِّجال المذكورين في البخاري زيادة على ما في «تهذيب الكمال» ، وسماه «الإعلام بمن ذكر في البخاري من الأعلام» ، وله أيضاً «تغليق التعليق» ، ذكر فيه تعاليق أحاديث الجامع المرفوعة ، وآثاره الموقوفة ، والمتابعات ، ومن وصلها بإسناده إلى الموضع المعلق ، وهو كتاب حافل عظيم في بابه ، لم يسبقه إليه أحد فيما عُلِمَ ، وقد نظمه العلامة اللغوي المَجْد صاحب «القاموس» ، ولخصه في مقدمة «الفتح» ، فحذف الأسانيد ، ذاكراً من خرجه موصولاً ، وكذا شرح البخاري العلامة المتفنن الأوحد الزَّيْنِيُّ عبدالرحيم بن عبدالرحمن بن أحمد العباسي الشافعي شرحاً رتبه على ترتيب عجيب ، وأسلوب غريب ، فوضعه كما قال في ديباجته على منوال مصنف ابن الأثير ، وبناه على مثال جامعه المنير ، وجرده من الأسانيد ، راقماً على هامشه بإزاء كل حديث حرفاً أو حروفاً يُعْلم بها من وافق البخاري على إخراج ذلك الحديث من أصحاب الكتب الخمسة جاعلاً إثر كل كتاب جامعٍ منه باباً لشرح غريبه ، واضعاً الكلمات الغريبة بهيئتها على هامش الكتاب موازياً لشرحها ، ليكون أسرع في الكشف ، وأقرب إلى التناول ، وقَرَّظَه شيخ الإسلام البرهان بن أبي شريف ، والزين عبدالبر ابن الشِّحْنة ، والعلامة الرَّضيّ الغزي .

ومن أجود شروحه وأقربها تناولاً ، وأحلاها مذاقاً وأحسنها اختصاراً مع كثرة الفائدة ، «إرشاد الساري» شرح العلامة أحمد بن محمد بن أبي بكر ابن عبد الملك بن أحمد بن محمد بن محمد بن الحسين بن علي القَسْطَلّاني القاهِري الشافعي ، ولد في اثنتين وعشرين ذي القعدة ، سنة إحدى وخمسين وثمان مئة بمصر ، وتوفي يوم الخميس مُسْتَهَل المحرم افتتاح سنة ثلاث وعشرين وسبع مئة ، وكان يوم موته يوم دُخول السلطان سليم مصر ، وتعذر الخروجُ به في ذلك اليوم إلى الصحراء .

وقد نظم شيخ الإسلام البُلقيني مناسبات ترتيب تراجم البخاري بقصيدة طويلة أولها:

أَتَى في البُخارِي حكمة في التَّرَاجِمِ مناسبة في الكتبِ مِثل البَراجِمِ

ذكرها القَسْطَلّاني بأجمعها.

وممن شرحه شيخ أشياخي ووالدهم الشيخ محمد سالم المَجْلِسي في أربعة عشر مجلداً ضخاماً وسماه «النهر الجاري».

هذا ما وقفت عليه من شروحه، مما كَمَل، ومما لم يَكْمُل، ومما اقتصر على التراجم، والجميع يقرب من نحو الخمسين.

مبادىء علم الحديث

والآن أُقَدِّمُ قبل الشروع في تقرير المتن كلاماً مختصراً على مبادىء علم الحديث رواية ودِراية، لأنهما مجموعان في هذا الكتاب باعتبار المتن والشرح، فقد قال العلماء: إن كل من قصد فنّاً من الفنون يلزمه قبل الشروع فيه معرفة مبادئه العشرة، ليكون الطالب على بصيرة في طلبه، لاستحالة توجيه النفس نحو المجهول المطلق، لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، وقد يقال: الحكم على الشيء ردّاً وقبولا فرع عن كونه معقولا.

والمبادىء العشرة قسمان: قسم تجب معرفته وجوباً صناعيّاً، وهو ثلاثة: الحد، والموضوع، والغاية، وقسم تندب معرفته كذلك، وهو ما عدا ذلك.

وقد مر لكَ أن علم الحديث رواية ودراية، والحديث يرادفه الخبر على الصحيح، وهو ما أضيف إلى النبي ﷺ قيل: أو إلى صحابي، أو إلى مَنْ دونه من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة، وهذا هو المعبر عنه بعلم الحديث رواية ويحد: بأنه علم يشتمل على نقل ذلك.

وموضوعه كما قال الشيخ زكريا وغيره: ذات النبي ﷺ من حيث إنه نبي ، وقال المُناوِي في: «شرح نخبة الفكر»: إن هذا باطل ، لأن ما قاله موضوع علم الطب لا الحديث.

قلت: أما قوله: إنه باطل فهو ظاهر عندي ولكن لا من الوجه الذي قاله. فقوله: إن هذا موضوع علم الطب غير صحيح؛ فإنه سها عن آخر الحد من قوله ، من حيث إنه نبي ، فموضوع علم الطب الذات الشريفة من حيث الجسمية لا من حيث النبوة ، لكن الحد مردود من حيث القصور ، فإن موضوع كل فن ما يُبحث في ذلك الفن عن عوارضه الذاتية ، فالحديث يُبحث فيه عن ذاته عليه الصلاة والسلام من حيث إنه نبي ، وعن ذات الله تعالى وصفاته ، وعن جميع الحلال والحرام ، وكل الشريعة المحمدية؛ فتبين بهذا قصور الحد.

وغايته الفوز بسعادة الدارين.

وأما استمداده فهو من الوحي المنزل عليه ﷺ.

ومسائله الأفراد المستفادة من الأحاديث.

واسمه علم الحديث روايةً.

وواضعه في الحقيقة هو الله تعالى ، وبالواسطة هو النبي عليه الصلاة والسلام.

ونسبته إلى علوم الشريعة غير التفسير كلي ، وإلى التفسير نسبةُ تساوٍ ، هذا ما ظهر لي ، والله تعالى أعلم.

وحكم الوجوب كفائي ، إذ فرض العين تمكن معرفته من الفقه ، وهو مؤلف فيه.

وفضله لا يعلمه إلا الله تعالى ، لأن فضل كل علم بنسبة ما عُلِم منه ، وعلم الحديث معلومة منه الشريعة بأسرها.

وأما علم الحديث دِراية ، وهو المراد بعلم الحديث عند الإطلاق؛ فهو علم يقصد به حال الراوي ، والمروي ، من حيث القَبُول والرد ، وما يتعلق بذلك من معرفة اصطلاح أهله.

وموضوعه: الراوي والمروي من حيث ذلك.

وغايته: معرفة ما يُقْبَلُ وما يُرَدُّ من ذلك.

ومسائله: ما يذكر في كتبه من المقاصد.

وقيل: موضوعه: السند والمتن ، وغايته: تمييز الصحيح.

وقيل: موضوعه: طرق الحديث ، لأن المحدث يبحث عما يعرِض لذلك من الاتصال ، وأحوال الرجال.

وواضعه الذي هو أول ما اخترعه وصنف فيه القاضي أبو محمد الحسن بن عبدالرحمن الرّامَهُرْمُزي ـ بفتح الراء والميم ، وضم الهاء والميم الثانية ، وسكون الراء آخره زاي ـ نسبة إلى رَامَهُرْمُز: كورة من كور الأهواز ، من بلاد خُوزِستان ، ثم صنف فيه بعده كثير من العلماء.

واسمه: علم الحديث دراية.

وفضله: بما استفيد منه من تصحيح السنة. وصونها عن التلاعب بها ، وأعظم به من فضل.

وحكم الوجوب: الكفائي.

وأتيت في تقدير ألفاظ المتن بعبارات مختصرة ملتقطاً لها غالباً من «فتح الباري» ، وطوراً من «عمدة القاري» ، و«إرشاد الساري» محتوية على زبدة ما في الكتب الثلاثة مع زيادات من غيرها ، ملتزماً عند الحديث الأول من البخاري جميع ما تفرق في «الفتح» في غير ذلك من المواضع ، حتى تمكن الإحالة عليه في جميع المواضع في الغالب ، وإنما يحصل غير الغالب حين يكون الحديث الأول معلقاً أو مختصراً.

وحيث إن الأسانيد أنساب الكتب كما قالوا ، لا بد لي من سند إلى البخاري ليصح الانتساب إليه ، وأكتفي في سندي إليه بالاتصال بابن حجر العسقلاني ، وتبيين طرقه المتصلة بالبخاري ، فسندي إلى ابن حَجَر عن شيخي أحمد بن محمد عينين اللَّمْتوني الشِّنْقِيطي ، سماعاً منه لكثير من العلوم المتفرقة ، عن شيخه الشيخ محمد محمود بن حبيب الله ابن القاضي ، عن شيخه سيدي عبدالله بن الحاج بن إبراهيم العَلَوِيّ ، عن شيخه الشيخ محمد بن الحسن البُناني صاحب الثَّبت الشهير ، عن شيخه سيدي محمد بن عبدالسلام البُناني ، عن شيخه أبي الفضل سيدي أحمد ابن العربي بن الحاج ، وعن سيدي محمد بن عبدالقادر الفاسِيّ كلاهما عن تاج الأمة سيدي عبدالقادر بن علي بن يوسف الفاسي ، والد الثاني ، عن عم أبيه أبي زيد سيدي عبدالرحمن بن محمد الفاسي ، عن العلامة النظار أبي عبدالله محمد بن القاسم القصار القَيْسيّ ، عن الولي سيدي رضوان بن عبدالله الجندي ، عن الولي سيدي عبدالرحمن بن علي المعروف بسُقَّين ـ بضم السين المهملة ، وفتح القاف المشددة ـ السُّفياني ، عن شيخ الإسلام ، قاضي القضاة زكريا الأنصاري الشافعي ، عن شيخ الإسلام الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن محمد ابن حجر العسقلاني ، المولود سنة ثلاث وسبعين وسبع مئة ، المتوفى سنة اثنتين وخمسين وثمان مئة . وقد اتصل لابن حجر من أربعة طرق ، عن أبي عبدالله بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشر الفِرَبْرِيّ ، توفي سنة عشرين وثلاث مئة ، وكان سماعه للصحيح مرتين ، مرة بفِرَبْر سنة ثمان وأربعين ، ومرة ببخارى سنة اثنتين وخمسين و مئتين ، وعن ابراهيم بن معقل بن الحجاج النَّسَفِيّ ، وكان من الحفاظ ، وله تصانيف. توفي سنة أربع وتسعين ومئتين ، وقد فاتته من الجامع أوراق ، رواها بالإجازة ، وعن حماد ابن شاكر النَّسَوِيّ ، مات في حدود التسعين ، وله فيه فوت أيضاً ، وعن أبي طلحة منصور بن محمد بن علي بن قرينة ـ بقاف ونون بوزن كريمة ـ

البَزْدَوِيّ بفتح الموحدة ، وسكون الزاي ـ توفي سنة تسع وعشرين وثلاث مئة ، وهو آخر من حدث عن البخاري بصحيحه ، كما قال ابن ماكولا وغيره ، وقد عاش بعده ممن سمع من البخاري القاضي الحسين بن إسماعيل المَحامِليّ ببغداد ، ولكن لم يكن عنده الجامع الصحيح ، وإنما سمع منه مجالس أملاها ببغداد في آخر قدمة قدمها البخاري ، وقد غلط غلطاً فاحشاً من روى «الصحيح» عن المحاملي المذكور ، والذي انتشرت رواية الصحيح عنه من الأربعة المذكورين ، هو الفِرَبْري ، فقد رواه عنه تسعة : الحافظ أبو علي سعيد بن عثمان بن سعيد بن السَّكَن ـ بفتح السين والكاف ـ ، والحافظ أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد المُسْتَمْلي ، وأبو نصر أحمد بن محمد بن أحمد الأَخسيكثي ، والفقيه أبو زيد محمد بن أحمد المَرْوَزِيّ ، وأبو علي محمد بن عمر بن شبويه ، وأبو أحمد محمد بن محمد الجُرجانيّ ـ بجيمين ـ وأبو محمد عبدالله بن أحمد السَّرَخْسيّ ، وأبو الهيثم محمد بن مكي الكُشْمِيْهَنِيّ ، وأبو علي إسماعيل بن محمد ابن أحمد بن حاجب الكُشّاني ، وهو آخر من حدث الصحيح عن الفِرَبْري . فأما رواية ابن السَّكَن فرواها عنه عبدالله بن محمد بن أسد الجُهَنِيّ ، ورواها الحافظ ابن حجر عن الجُهَنِيّ ، عن شيخه أبي علي محمد بن أحمد بن علي بن عبد العزيز عن يحيى بن محمد بن سعد ، عن جعفر بن علي الهَمْدانيّ ، عن عبدالله بن عبدالرحمن الدِّيباجِيّ ـ بالجيم ـ عن عبدالله بن محمد بن محمد بن علي الباهِلِيّ ، عن أبي علي الحسين بن محمد الجَيّاني ـ بفتح الجيم ، وتشديد المثناة التحتية وبالنون ـ عن القاضي أبي عمر أحمد بن محمد بن يحيى بن الحَذّاء قراءة عليه ، وعن أبي عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر الحافظ إجازة ، قالا : حدثنا أبو محمد الجُهَنِيّ وكان ثقةً ضابطاً ، عن أبي السَّكَنِ ، عن الفِرَبْري .

وأما رواية المُسْتَملي فرواها عنه الحافظ أبو ذر عبدالله بن أحمد الهَرَوِيّ ـ بفتح الهاء والراء ـ وعبد الرحمن بن عبدالله الهَمْدانِيّ ، وقد روى

أبو ذر أيضاً عن السرخسيّ ، والكُشْمِيهَنيّ . وقد روى ابن حَجَر رواية أبي ذَرّ عن شيوخه الثلاثة ، عن أبي محمد عبدالله بن محمد بن محمد بن سليمان المَكّي ، عن إمام المقام أبي أحمد إبراهيم بن محمد بن أبي بكر الطَّبَريّ ، عن أبي القاسم عبدالرحمن بن أبي حَرَمي المكي ، عن أبي الحسين علي بن حُميد بن عمار الطَّرَابُلُسيّ ، عن أبي مَكْتوم عيسى بن الحافظ أبي ذَرّ عبدالله أحمد ، عن أبيه ، عن شيوخه الثلاثة الفربري .

وأما رواية عبدالرحمن الهَمْدانيّ ، عن شيخه المستملي ؛ فرواها ابن حَجَر عن أبي حيان محمد بن حيان بن العلامة أبي حيان ، عن جده ، عن أبي علي بن أبي الأَحْوَصِيّ ، عن أبي القاسم بن بَقِيّ ، عن شريح ابن علي بن أحمد بن سعيد ، عن عبدالرحمن الهَمْدانيّ ، عن المُسْتَمْلي ، عن الفِرَبْرِيّ .

وأما رواية الأخسيكثي ؛ فرواها عنه إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل الصَّفّار الزّاهد ، وقد روى ابن حَجَر رواية إسماعيل المذكور بهذا السند المار إلى أبي حيّان ، عن أبي جعفر أحمد بن يوسف الطحالي ، ويوسف ابن إبراهيم بن أبي رَيْحانة المالِقي ، كلاهما عن القاضي أبي عبدالله محمد بن أحمد بن محمد الأنصاري ابن الهيثم ، عن القاضي أبي سليمان داود بن الحسن الخَالدي ، عن إسماعيل المَذْكور ، عن الأخسيكثي ، عن الفِرَبْرِيّ .

وأما رواية الفقيه أبي زيد المَرْوَزِيّ ؛ فقد رواها عنه الحافظ أبو نُعيم الأَصْبَهاني ، والحافظ أبو محمد عبدالله بن إبراهيم الأَصِيليّ ، نسبة إلى أَصِيلا من بلاد العُدْوة ، نشأ بها ، وسكنها ، ومات بها لإحدى عشرةَ ليلة بقيت من ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين وثلاث مئة ، والحافظ أبو الحسن علي بن محمد القابسي ـ بالقاف ، والموحدة ، والمهملة ـ . فأما رواية أبي نُعيم فرواها ابن حَجَر عن علي بن محمد بن محمد الدِّمَشْقي ، عن سليمان بن حَمْزة بن أبي عمر ، عن محمد بن عبدالهادي المَقْدِسي ، عن

الحافظ أبي موسى محمد بن أبي بكر الدملي ، عن أبي علي الحسن بن أحمد بن الحسن الحداد ، عن أبي نُعيم ، عن شيخه أبي زيد المَرْوَزِيّ ، عن الفِرَبْري .

وأما رواية الأَصِيلِيّ ، والقابسي عن أبي زيد المَرْوَزِيّ ؛ فرواها ابن حَجَر بالإسناد المتقدم في رواية الجُهَنيّ ، عن ابن السَّكَن إلى أبي عليٍّ الجيّاني ، عن أبي شاكر عبدالواحد بن محمد بن وَهْب ، عن الأَصِيلِيّ وحاتم بن محمد الطَّرابُلُسيّ ، عن القابِسِيّ ، وبالإسناد المذكور إلى جعفر بن علي كتب إلى الحافظ أبي القاسم خَلَف بن بَشْكُوال ، أنبأنا عبدالرحمن بن محمد بن غياث ، عن حاتم ، عن القابِسِيّ ، عن أبي زيد المَرْوَزِيّ ، عن الفِرَبْرِيّ .

وأما رواية أبي علي الشَّبُّوي ، فرواها عنه سعيد بن أحمد بن محمد الصَّيرَفِيّ العَيّار ، وعبدالرحمن بن عبدالله الهَمْداني ؛ فروى ابن حَجَر رواية سعيد العَيّار ، عن محمد بن علي بن محمد الدِّمَشْقي ، عن محمد ابن يوسف بن الهَتّان ، عن العلامة تَقِيّ الدين أبي عمرو عثمان بن عبدالرحمن الشَّهْرُزورِيّ المعروف بابن الصّلاح ، عن منصور بن عبدالمنعم بن عبدالله بن محمد بن الفَضْل الرّازيّ ، عن محمد بن إسماعيل الفارِسيّ ، عن سعيدٍ العَيّار ، عن أبي علي محمد بن عمر الشَّبُّويّ ، عن الفِرَبْرِيّ ، ورواية عبدالرحمن الهَمْداني قد مر سندها في روايته عن المُسْتَمْلِيّ .

وأما رواية أبي أحمد الجُرجانيّ ، فقد رواها عنه أبو نُعيم ، والقابِسي أيضاً ، وقد مر سند ابن حَجَر فيهما في روايتهما عن أبي زيد المَرْوَزِيّ .

وأما رواية أبي محمد السرْخسيّ ـ بفتح السين المهملة والراء وسكون الخاء المعجمة ، وسكون الراء وفتح المعجمة ـ فقد رواها عنه أبو ذَرّ ، وقد مر السند إليه في روايته عن المُسْتَمْلي ، وأبو الحسن عبدالرحمن بن

محمد بن المظفر الداوودي البُوشَنْجِيّ ـ بضم الموحدة ، وسكون الواو ، وفتح المعجمة ، وسكون النون ، وبكسر الجيم ـ نسبة إلى بلدةٍ بقرب هَراة خراسان المتوفى سنة سبع وستين وأربع مئة ، وقد روى ابن حَجَر رواية الداوودي ، وهي أعلى رواية له ، عن أبي محمد عبدالرحيم بن عبدالكريم بن عبدالوَهّاب بن حَمُّوَيْه ـ بفتح المهملة ، وتشديد الميم المضمومة ، وسكون الواو ، وفتح الياء التحتية ـ ، وأبي علي محمد بن محمد بن علي الجِيْزِيّ ، وأبي إسحاق إبراهيم بن أحمد بن علي بن عبدالواحد بن عبدالمؤمن البَعْلِيّ ـ بالموحدة المفتوحة ، والعين الساكنة ـ وأبي الحسن علي بن محمد بن محمد الجَوْزِيّ .

أخبر الأولان عن أبي العباس أحمد بن أبي طالب بن أبي النعم ، نعمة بن الحسن بن علي بن بيان الصّالحِيّ ، وعن ست الوزراء ، وزيرة بنت محمد بن عمر بن أسعد بن المُنَجّا التَّنُوخِيّة ، وأخبر الثالث أبو إسحاق ، عن أحمد بن أبي طالب بن نِعْمة ، وقال الرابع علي بن محمد ، قرىء على ست الوزراء ، وأنا أسمع ، روى الجميع عن أبي عبدالله الحُسين بن المبارك بن محمد بن يَحْيى الزُّبَيْدِيّ ، وقالوا ـ سوى المرأة ـ كتب إلينا أبو الحسن محمد بن أحمد بن عُمر القَطِيعِيّ ، وأبو الحسن علي بن أبي بكر بن رُوزبه القَلانسي ، وثابت بن محمد الخُجَنْدي ، أخبر الجميع عن أبي الوقت عبدالأول بن عيسى بن شُعيب السِّجْزِيّ ـ بكسر المهملة ، وسكون الجيم ، وكسر الزاي ـ الهَرَوِيّ الصوفي ، ولد في ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وأربع مئة ، ومات في ذي القعدة ، ليلة الأحد ، سنة ثلاث وخمسين وخمس مئة ، عن أبي الحسن الدَّاوودي عن السرخَسيّ ، عن الفِرَبْرِيّ .

وأما رواية الكُشْمِيهَنيّ فقد رواها عنه أبو ذَر ، وقد سند ابن حَجَر إليه في روايته عن المُسْتَمْلي ، ورواها عنه أبو سهل محمد بن أحمد الحَفْصي ، وكريمة بنت أحمد المَرْوَزِيّة ، وقد روى ابن حَجَر رواية الحَفْصي بالإسناد الماضي في رواية سعيد العَيّار ، عن أبي علي الشَّبُّوي

إلى منصور بن عبد المُنعم ، عن أبي بكر وجيه بن طاهر ، وعبدالوهاب ابن شاه الشّاذِياخِيّ وجد أبي محمد بن الفضل الصاعِديّ عن الحَفْصِيّ عن الكُشْمِيهَنيّ عن الفِرَبْرِيّ ، وروى رواية كريمة عن الحافظ أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العِراقي ، عن أبي علي عبدالرحيم بن عبدالله الأَنْصَارِيّ عن المُعين أحمد بن علي بن يوسف الدِّمَشْقي ، وإسماعيل بن عبد القَويّ بن عَزُّون ـ بفتح العين المهملة ، وضم الزاي المشددة ، وبالواو ، وانون ـ المِصْري ، وأبو عمرو عثمان بن رَشِيق ـ بفتح الراء ، وكسر المعجمة ـ المالكي ، سماعاً وإجازةً لما فات ، أخبر الجميع عن أبي القاسم هبة الله بن علي بن مسعود البُوصِيْرِيّ ، عن أبي عبدالله محمد ابن بركات النَّحْوِيّ السَّعْدِيّ ، عن كريمة ، عن الكُشْمِيْهَنيّ ، عن الفِرَبْرِيّ .

وأما رواية أبي علي إسماعيل الكُشَاني ، فرواها عنه أبو العباس جعفر ابن محمد المُسْتَغْفِري ، وقد روى ابن حَجَر رواية المُسْتَغْفِري بالإسناد الماضي في رواية أبي نُعيم الأصبهاني عن أبي زيد إلى موسى محمد بن أبي بكر الدملي ، قال: أنبأنا أبي ، عن الحسن بن أحمد ، عن المُسْتَغْفِرِيّ ، عن الكُشانيّ عن الفِرَبْرِيّ ، فهذه أسانيد ابن حَجَر المتصلة بالتسعة الذين رووا عن الفِرَبْرِيّ ، بذلت الجهد في ترتيبها ترتيباً يسهل تناولها به ، لم يفعله صاحب الأصل ابن حَجَر.

وأما الثلاثة الباقية من الأربعة الراوين عن البخاري صحيحه ، فإبراهيم بن مَعْقِل ، روى ابن حَجَر روايته بالإسناد الماضي في رواية الجُهَنيّ عن ابن السَّكَن ، إلى أبي علي الجَيّاني ، قال: أنبأنا الحكم بن محمد ، عن أبي الفضل عيسى بن أبي عِمران الهَرَوِيّ ، سماعاً لبعضه ، وإجازة لباقيه ، عن أبي صالح خَلَف بن محمد بن إسماعيل البخاري ، عن إبراهيم بن مَعْقِل البُخاري .

وأما حَمّاد بن شاكر ، فروى ابن حَجَر روايته عن أحمد بن أبي بكر

ابن عبدالحميد ، عن أبي الرَّبيع بن أبي طاهر بن قُدامة ، عن الحسن بن السيد العَلَويّ ، عن أبي الفضل بن ناصر الحافظ ، عن أبي بكر أحمد بن خَلَف ، عن الحاكم أبي عبدالله محمد بن عبدالله الحافظ ، عن أحمد بن محمد بن رُمَيْح النَّسَويّ ، عن حَمّاد بن شاكِر ، عن البُخاري .

وأما أبو طلحة البَزْدَويّ ، فقد روى ابن حَجَر روايته بالسند الماضي إلى المُسْتَغْفِريّ ، قال: أنبأنا أحمد بن عبدالعزيز ، عن أبي طلحة البَزْدَويّ ، عن البُخاري . هذا سندي إلى البُخاري المبتدأ بالسماع من علماء الغرب ، ولي فيه عدة أسانيد من علماء بالمشرق بالإجازة منها:

إني أجازني فيه الشيخ محمد عابد بن حسين ، مفتي المالكية ، بمكة المكرمة ، المتوفى بها ، عن شيخه العلامة السيد أحمد بن زيني دحلان المالِكيّ ، مفتي الشافعية بمكة ، المتوفى بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، عن شيخه العلامة الشيخ عُثمان بن حسن الدِّمْياطي المِصْري ثم المَكّي مهاجراً ، المتوفى بها ، عن شيخه العلامة الشهير الشيخ محمد بن محمد الأمير الكبير المَكّيّ ، صاحب الثبت الشهير ، وهو يرويه عن شيخه السَّقّاط ، عن شيخه الشيخ أحمد المكي ، عن الشيخ محمد بن علاء الدين البَابِلِيّ المَكّيّ ، عن الشيخ سالم السَّنْهُورِيّ المالِكي ، عن النَّجْمِ القِبْطِي ، عن شيخ الإسلام ابن حَجَر بأسانيده التي فصلناها غاية التفصيل فيما مر إلى كل من روى عن البُخاري ، ورواه البابليّ سماعاً ، وإجازة ، عن شهاب الدين الرَّمْلِيّ ، عن ابن حَجَر ، فيكون أعلى من الأول بدرجتين ، ولي عدة أسانيد يطول جَلْبها ، وفي هذا حصول الغرض الذي أردته من التوصيل الذي أوردته ، فَلْيَقَعِ الشروع مقتصراً في المتن على الرواية التي قال في «الفتح»: إنها هي أتقن الروايات ، وهي رواية أبي ذر عبدالله بن أحمد الهَرَوِيّ ، عن مشايخه الثلاثة أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد المُسْتَمْلي ، وأبي محمد عبدالله بن أحمد السرخسيّ ـ بفتح السين المهملة والراء وسكون الخاء ، وسكون الراء وفتح المعجمة ـ وأبي الهيثم محمد بن مكي الكُشْمِيهَنِيّ ـ

بكاف مضمومة ، وشين معجمة ساكنة ، وميم مفتوحة ، وياء ساكنة ، وهاء مفتوحة ، وقد تكسر ، وقد تبدل الياء ألفاً ، وقد تمال الألف ـ وهو نسبة إلى قرية بمَرو ، وإنما كانت أتقن لضبطه لها ، وتمييزه لاختلاف سياقِها ، وفيها نبه على ما يحتاج إليه مما يخالفها ، فأقول: قال الشيخ الإمام الحافظ أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المُغيرة بن بَرْدِزْبه ـ بفتح الموحدة ، وسكون الراء ، وكسر الدال المهملتين ، وسكون الزاي المعجمة ، وفتح الموحدة ، بعدها هاء ساكنة ـ ومعناه الزراع بالفارسية البخاري رحمه الله تعالى آمين وقد مر تعريفه مستوفى ، قال رحمه الله تعالى :